بنیاد پژوهشهای اسلامی
آستان قدس رضوی

رائحة الجنة

كلمات في شرح زيارة عاشوراء

محمدجواد حاج علي أكبري
ترجمة: السيد عباس الرضوي

بسم الله الرحمن الرحيم

محمّدجواد حاج علي أكبري

رائحة الجنّة

كلمات في شرح زيارة عاشوراء

ترجمة :

السيد عبّاس الرضويّ

حاجعلي‌أكبري، محمّدجواد
[بوي سيب : شرحي بر زيارت عاشورا . عربي]
رائحة الجنّة : كلمات في شرح زيارة عاشوراء / تأليف محمد جواد حاج علي أكبري؛ ترجمة السيدعبّاس الرضويّ . ـ مشهد المقدّسة : مجمع البحوث الاسلاميّة ، ١٤٣٤ق./ ١٣٩١ش.
١٢٤ص. ISBN 978-964-971-588-9
فيپا.
١. زيارتنامه، عاشورا ـ نقد و تفسير . ٢. زيارت ـ فلسفه . ٣. زيارت ـ احاديث الف. بنياد پژوهشهاي اسلامي. ب. رضوي، سيد عباس، ١٣٤٥ ـ ، مترجم ج. عنوان
BP ٢٧١ / ٦٠٢ / ح ٢ ١٣٩١ ٢٩٧/٧٧٧
كتابخانة ملى جمهورى اسلامى ايران ٣٠٣٨٤٥٤

شبكة الفكر
alfeker.net

بنیاد پژوهش‌های اسلامی
آستان قدس رضوی

رائحة الجنّة

كلمات في شرح زيارة عاشوراء

محمّد جواد حاج علي أكبري

ترجمة السيّد عبّاس الرضوي

الطبعة الأولى ١٤٣٤ق. / ١٣٩١ش. / ١٠٠٠ نسخة ، رقعي/ الثمن ٢٥٠٠٠ ريال إيرانيّ
طبع: مؤسّسة الطبع والنشر التّابعة للآستانة الرضويّة المقدّسة
مجمع البحوث الإسلاميّة، ص.ب ٣٦٦-٩١٧٣٥
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلاميّة: ٢٢٣٠٨٠٣
معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلاميّة، (مشهد) ٢٢٣٣٩٢٣، (قمّ)٧٧٣٣٠٢٩
www.islamic-rf.ir info@islamic-rf.ir

حقوق الطبع محفوظة للناشر

توطئة

تمثّل نصوص الزيارات خزانة الشيعة برمّتها، فكلمات الدعاء تنساب في أنفاس الحسين عليه السلام وزينب عليها السلام لينفتح بكل نفَس لهما كتاب دعاء، وبكلّ رمشة عين لهما تبزغ الشمس، وهل الشمس إلا لمحة من أفق الحسين عليه السلام وزينب عليها السلام؟

غير أنّ لزيارة عاشوراء (في هذا الخضمّ) قصّة أخرى، نحن نرتشف في زيارة عاشوراء شهد المودّة، وندرك على أعتابها أنّ معرفة سرّ سجود التعبّد والعبودية لا تنال إلا بـ «التولّي» و«التبرّي»، ثمّ هل الدين إلا هذان الأصلان؟

وبزيارة عاشوراء نرقى إلى مستوى فهم إيمانيّ وعقيديّ للنهضة الحسينية، ونستلهم في المقاطع السامية لهذه الزيارة الربانيّة ـ التي تمتدّ جذورها في عمق التوحيد، وتترشّح من شفاه الولاية ـ مبادئ العقيدة لمولانا السبط. فنفهم الرسالة والولاية، ونمزج الحماس بالإحساس، ونتعرّف على الدماء الإلهية، ونعظّمه ونحن نسلّم ـ حيث السلام يمثل عطر ذكراه في

نفوسنا ـ عليه. ونردّد «كلّ يوم عاشوراء، وكلّ أرض كربلاء» ونعاود الوقوف عند مبدأ ومقصد عاشوراء. ونتعلم مبادئ المحبّة والعداوة لوليّ الله تعالى، ولا تقتصر استفادتنا من المدرسة الحسينية على عاشوراء عام ٦١ للهجرة، وإنّما نعايشها في كلّ الأزمنة والأمكنة، فنبلغ مستوى فهم التولّي والتبرّي اللذين ينعدم فيهما الزمن، ونطلب من الله تعالى أن يبعد مؤسّسي ومروّجي الظلم والجور عن رحمته، بل ونقف على مصاديق الظلم في صعيد التأسيس والتهيئة والرضا بالظلم والسكوت عنه.

نفهم أنّ العمل الباطل يبدأ دوماً بالمواجهة وينتهي بالصراع، و نكرّر ذكر الموت المتّسم بالعرفان، ونتمنّى تجربة الموت على غرار ما فعله الحسين عليه السلام وأصحابه، ثمّ نسأل الله بذلك الوجاهة. ونطلب أن يكون محيانا ومماتنا مرآة لمحياهم ومماتهم. ونتمنّى ظهور المنتقم الحقيقيّ لدم الحسين عليه السلام، ونعتبر المصاب الحسينيّ مصابنا، ونردّد في المقطع الأخير مائة مرّة (أوّلاً) التبرّي، ثمّ نعقّبها بذكر التولّي مائة مرّة. بيد أنّ نفوسنا كأنّها لا تهدأ ولا تسكن، فنطلق لعناتنا على قادة الكفر والنفاق، ثمّ نهوي إلى السجود بمنتهى الإحساس والحماس، فنردّد «لك الحمد» ربّنا، ونسأله «شفاعة الحسين» و«ثبات القدم» على طريق الولاية الممتدّة والمزيّنة بالشهادة، ونستذكر آخر سجدة للحسين عليه السلام فنعطّر قلوبنا وأرواحنا برائحة الجنّة.

قصّة هذا الكتاب المعنون بـ «**رائحة الجنّة**»، تعود إلى نحو

عشرين عاماً، أي منذ (١٩٩١م)، حينما دار الحديث عن المحبوب في حلقة من براعم الأمس وشبيبة اليوم، وانسابت كلمات التعلّق والهيام على لسان الأستاذ اللامع حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ حاج علي أكبريّ. هذه المقدّمة تجدّد اليوم وبعد نحو عقدين من الزمن تلك الأيّام الخالدة خلال أيّام محرّم الحرام في ديار تفوح منها رائحة تفاح الجنّة، وفي بيت تذكو منه رائحة الرضا الغريب «**رائحة الجنّة**»[١]، فتدغدغ مشامّ أرواحنا. وهذا الكتاب يقدَّم إلى الأرواح الطاهرة لكافّة الربّانيّين الذين هرعوا مهلّلين إلى جبهات النور طاعة لولي أمرهم الإمام الخمينيّ ﷺ، مفعمين بالعشق لكربلاء، فبلغوا ديار المعشوق، ونالوا بجوار سيّد الشهداء مقام ﴿**عند ربِّهم يُرزقون**﴾. وإلى كل أنصار المهديّ عليه السلام، ولكلّ الأقران الربّانيّين الذين طاب مثواهم بجوار مولاهم. وللإمام روح الله الخمينيّ الذي عمّق في نفوسنا حلاوة زيارة عاشوراء. وله.. قائدنا العزيز؛ ابن الحسين، الذي يُوصل أنظارنا إلى آفاق بعيدة، فيبعث فينا الأمل ويرسم لنا مستقبلاً أكثر إشراقاً من أيّ وقت آخر.

في الختام لابدّ من تقديم الشكر والاحترام للجهود القيّمة لصديقنا العالم والفاضل حضرة السيّد حامد رمضان عليّ في إعداد وتدوين هذا النتاج الثرّ، مصحوباً بوافر الشكر لزملائنا

١- عنوان الكتاب باللغة الفارسية هو «بوي سيب؛ عطر التفاح»، لكنّ الاختيار وقع على عنوان «رائحة الجنّة»، لأسباب فنية.

الأعزّاء في مكتب قائد الثورة الإسلامية لمتابعتهم المستمرّة من أجل نشر هذا النتاج.

مركز «آينده سازان»[١] الثقافي للتبليغ

شتاء ٢٠٠٩

١ـ أي صانعوا المستقبل.

أقسام الزيارة

الزيارة في اللغة تعني الإتيان في دار المزور للأنس به أو لحاجة إليه، فمن يذهب إلى آخر بقصد لقائه يقال عنه: أنّه زاره. ومن خلال مجموع الروايات الكثيرة التي وصلت إلينا عن أئمّتنا الميامين، يتّضح أن الزيارة تقسم إلى ثلاثة أقسام:

زيارة إخوة الإيمان

شجّع أئمّتنا عليهم السلام المؤمنين على زيارة بعضهم الآخر، ودعوا أتباعهم إلى التزاور فيما بينهم، وكشفوا عن مدى قيمة هذا التزاور. ولعلّ الحديث الشريف التالي للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يكشف عن ثواب مثل هذا العمل:

«مَن زارَ أخاهُ المؤمنَ إلى منزلهِ لا لحاجةٍ منهُ إليهِ، كُتبَ مِن

زوّار الله، وكانَ حقيقاً على الله أن يُكرِمَ زائرَهُ»[1].

كَثيراً ما يحصل أن ترى واحداً من إخوتك المؤمنين في الزقاق أو الشارع أو المسجد أو المدرسة، فتقف معه وتسأله عن حاله. مثل هذا اللقاء لا يطلق عليه مصطلح الزيارة، أمّا إذا توجّهت إلى بيت أخيك المؤمن قاصداً رؤيته دون أن يكون سعيك هذا مشوباً بالطمع بشيء ما أو بقضاء حاجتك، ولم يتلوّث دافعك بأمنيات دنيوية، حينها تكون ممّن تشمله بشارة النبيّ الأكرمﷺ في الحديث الآنف الذكر، إنّ الله جلّ وعلا يحبّ أيضاً هكذا زيارة ويثني عليك، بل ويعدّك ضمن زوّاره.

ولعلّك تجد على غرار هذه الرواية الكثير من مثيلاتها في كتبنا الروائية، ويستشفّ منها أنّ الله تبارك وتعالى يُنزل المؤمن بسبب هذه الزيارات منزلة رفيعة ويُقرّ له شأناً عالياً. بل نقرأ في بعض من هذه الروايات عبارة عجيبة وهي **«إنّ اللهَ هوَ المَزورُ»**، والمعنى هو أن من يزور المؤمن يكون في الحقيقة زار الذات الإلهيّة المقدّسة.

وفي كلّ عام يقوم الحجّاج وبمشقّة كبيرة بزيارة بيت الله الحرام متجشّمين عناء السفر في التوجّه إليه، في حين أنّك إن تبادر إلى لقاء أخيك المؤمن الكائن بجوارك تكون قد زرت الله جلّ شأنه. إنّ النيّة الخالصة والنقيّة، وكذلك إضمار قصد القربة إلى الله تعالى في مثل هذه الزيارة من شأنهما أن تجعل قيمة

١ـ ***بحار الأنوار***، ج ٧٥، ص ٢٧٥، الباب ٢٣.

الزائر ومنزلته في صفٍّ من يسافر إلى مكّة المكرّمة لزيارة بيت الله الحرام بنية خالصة، بل وربما أعظم من ذلك.

زيارة المؤمن إحياء للقلوب

إلى جانب تأكيد هداتنا المعصومين عليهم السلام على التزاور بين أهل الإيمان وأهميّة ذلك، بيّنوا لأتباعهم أهداف وآثار مثل هذه اللقاءات.

إذا كانت الغاية من التزاور التداول في أحاديث أهل البيت عليهم السلام والاطّلاع على سيرهم وكلامهم، فإنّ تلك اللقاءات مكلّلة بثمرة قيّمة، وما تلك الثمرة إلّا إحياء قلب الإنسان الذي يجسّد حقيقة الحياة وفلسفة الخلقة السامية.

ولعلّنا نقف على هذه النقطة من خلال حديث الإمام الصادق عليه السلام حينما يقول: «**تزاوَرُوا فإنَّ في زيارَتِكم إحياءً لقلوبِكُم وذِكراً لأحاديثِنا، وأحاديثُنا تعطفُ بعضَكم على بعضٍ، فإن أخذتُم بها رشدتُم ونجوتُم، وإن تركتموها ضلَلتُم وهلكتُم، فخُذوا بها وأنا بنجاتِكُم زعيمٌ**».[١]

١- *أصول الكافي*، ج ٢، ص ١٨٦.

زيارة قبور المؤمنين والشهداء والصالحين[١]

القسم الثاني من الزيارة هو زيارة قبور المؤمنين والشهداء والصالحين، فلقد وردتنا عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام روايات كثيرة تتحدث عن أهميّة مثل هذه الزيارة. ولم يكتفوا عليهم السلام بالتأكيد لمثل هذا النوع من الزيارات وإنّما بيّنوا دلائل أهميّتها أيضاً.

إنّ زيارة أهل القبور تفضي بالإنسان إلى التفكير بالموت وبمنزله الأبديّ، وبالتالي الابتعاد عن الرغبة المفرطة في الدنيا ولذائذها، والإقبال على ذكر الماضين بالخير وطلب الرحمة لهم. ثمّ إنّ لزيارة قبور الشهداء والصالحين أثراً مهمّاً آخر، هو إحياء الفضائل والأهداف السامية لتلك الثلّة.

زيارة المراقد الطاهرة للأئمّة المعصومين عليهم السلام

النوع الثالث من الزيارات زيارة المراقد الطاهرة للأئمّة المعصومين «صلوات الله عليهم أجمعين». فمثل هذه الزيارة

١- رغم أنّ بعض علماء السنّة يحرّمون زيارة أهل القبور، لكنّ غالبيّتهم وكافّة علماء الشيعة أفتوا بجواز مثل هذه الزيارة. حليّة هذه الزيارة متأتّية من الروايات العديدة القائلة بحلّيتها من جهة، وممّا تزخر به السيرة العملية للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام بمصاديق من هذا النوع من الزيارة، من جهة أخرى. وهما ممّا يعدّان دليلاً على شرعية مثل هذه الزيارة. ولدينا رواية ذكرت أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان يزور قبور الأموات والشهداء، بل إنّه بكى بجانب قبر والدته عليها السلام حتى بكى أصحابه أيضاً عندما رأوه على ذلك الحال.

تحظى بأهميّة خاصّة في الثقافة الإسلامية، الأمر الذي تفصح عنه روايات عديدة.

بعض تلك الروايات عامّة ولا تتحدّث عن زيارة إمام معيّن، بيد أن بعضها الآخر تتحدّث على نحو الخصوص بشأن زيارة مرقد واحد من الأئمّة عليهم السلام. وهنا نتطرّق إلى نماذج من تلك الروايات مع شيء من الإيضاحات، فضلاً عن تبيين أهميّة مثل هذا النوع من الزيارات.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَن زارَني حيّاً وميّتاً كنتُ لهُ شفيعاً يومَ القيامة**».[١] لا تواجه البشرية على مدى وجودها يوماً عصيباً مفزعاً كالذي تواجهه يوم القيامة، فكلّ الناس ـ منذ اليوم الأوّل للخلقة وحتى آخر لحظة ـ سيهرعون من قبورهم، وتكوّر الشمس، ويخسف القمر، وتتصدّع الأرض، وتسيّر الجبال (أي تصبح سراباً وهباءً)، ويرى الإنسان نفسه وحيداً لا ملاذ له.

فتشهد عليه رجله وبصره وسمعه، ويشاهد في مقابله العذاب الإلهيّ. في مثل هذا المشهد تطلّ البشرى الكبرى، ألا وهي الوعد بشفاعة نبيّ الرحمة صلى الله عليه وآله. وهناك روايات أخرى وصلت إلينا بنفس المضمون تتحدّث عن زيارة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وسيّدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام، والإمام الحسن عليه السلام، والإمام الحسين عليه السلام، والإمام الرضا عليه السلام.

١- *وسائل الشيعة*، ج ١٤، ص ٣٣٦.

المسؤولـيّة الثقيلة

قال الإمام عليّ بن موسى الرضاعليه السلام:

«إنّ لكلّ إمامٍ عَهداً في عنُق أوليائـهِ وشيعَتهِ، وإنّ مـن تمـامِ الوفاءِ بالعَهد وحُسنِ الأداءِ زيارةَ قبورهم، فمَن زارَهُم رغبَـةً فـي زيارتِهم وتصديقاً بما رغبوا فيـهِ، كـانَ أئمَّـتهُم شـفَعاءَهم يـومَ القيامَة».[1] إنّ المرء ليشعر بثقل الأمانة والعهد الذي أوثق به نفسه حتّى يفي بذلك العهد ويـردّ الأمانـة، خاصّـة إذا كـان المـؤتمِن والموجِد للعهد شخص كالإمـام المعصـومعليه السلام. ففـي مثـل هـذا الحال تكون المسؤولية على عاتقنا ثقيلة جدّاً.

ولا يمكننا أن نشعر بالراحة حتّى نطمـئنّ تمامـاً مـن قـدرتنا على الوفاء بالعهد وأداء الأمانة. ولعـلّ مـن الصـواب القـول: إنّ زيارة القبر الطاهر للإمام المعصومعليه السلام تمثّل أحـد مصـاديق أداء الأمانة والوفاء بالعهد له.

ومتى ما اتّسمت الزيارة بالعرفان ومشاعر الحبّ، كانت علامة للتحلّي بالأمانة والوفاء بالعهد، أي أنّه ينبغي للزائر ـ إلـى جانـب حبّه وشـوقه إلى الإمـام المعصومعليه السلام ـ أن يعتقـد ويقن بمقـام المعصوم ومنزلته التي أنزله الله تعالى إيّاها. ففـي نفـس الوقـت الذي تتوقّد في قلبه شعلة المحبّة، يكون عقله عارفاً بأحقّيتهعليه السلام. ومثل هذه الزيـارة تسـتتبعها شـفاعة الإمـام المعصـومعليه السلام يـوم

١- *أصول الكافي*، ج ٤، ص ٥٦٧.

القيامة.

إذاً فهذه الرواية لا تشمل من يذهب (على سبيل المثال) في سفرة ترفيهية إلى مراقد الأئمّة عليهم السلام.

حقيقة نورانية

جاء في رواية عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال:

«مَن زارَ أوّلَنا فقد زارَ آخرَنا، ومَن زارَ آخرَنا فقد زارَ أوّلَنا، ومَن تولّى أوّلَنا فقد تولّى آخرَنا، ومَن تولّى آخرَنا فقد تولّى أوّلَنا ..».[1]

لـلأربعة عشر معصوماً ـ الذين نفخر نحن الشيعة باتباعهم ـ مرتبتان وجوديّتان؛ وجود جسماني ووجود نورانيّ. وفي الواقع أنّ وجودهم النورانيّ هو حقيقة واحدة، وهو أوّل ما خلق الله تبارك وتعالى وجعله في المرحلة الأولى من الخلقة محدقاً حول عرشه. وهكذا جاء في زيارة الجامعة الكبيرة:

«.. خلقَكُم اللهُ أنواراً وجعلكُم بعرشهِ مُحدقينَ، ثمَّ منَّ علينا بكُم..».

أمّا الوجود الجسمانيّ المتمثّل بأربعة عشر جسماً فقد رأت النور في العالم الماديّ على أرض الحجاز وأرض السواد (العراق حاليّاً) قبل نحو أربعة عشر قرناً، ليمثّل كلّ منها مظهراً من الوجود النورانيّ الواحد. وكأنّك قد نصبت أربع عشرة مرآة في مقابل شمس مشرقة واحدة، فتنعكس في كلّ مرآة سيماء

١- *بحار الأنوار*، ج ٩٧، ص ١٢١.

الشمس الأخّاذة، أمّا حقيقة الأمر فهي أنّ الصور الأربع عشرة الظاهرة في المرايا الأربع عشرة هي انعكاس لنور شمس واحدة.

ولعلّك تلمس هذه الحقيقة في عبارة الرواية الشريفة: «**كلّهم نورٌ واحدٌ**».

لقد أشار الإمام موسى الكاظم عليه السلام في هذه الرواية أيضاً إلى حقيقة قائمة، مفادها أن لا تحسب أنّ زيارتك لأحد الأئمّة الأطهار عليهم السلام تختصّ بتلك الشخصيّة المعصومة، بل إنّ زيارة كلّ من الأئمّة عليهم السلام تعني زيارتهم أجمع.

فمن يوفّق لزيارة أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، كان كمن زار الإمام الحسن العسكري عليه السلام. أو من يمتثل بالطاعة للإمام محمّد الجواد عليه السلام كان كمن اتّبع الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام.

وكما هو معروف يمكنك حينما تزور الإمام الثامن عليه السلام في مدينة مشهد المقدّسة وتقف أمام مرقد ذلك الإمام الرؤوف، أن تقرأ زيارة «الجامعة الكبيرة» أو زيارة «أمين الله» بنيّة زيارة كافّة الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

زيارة قبور الأئمّة وحكمتها

عرفنا حتى الآن أنّ الثقافة الإسلامية شجّعت على ثلاثة أنواع من الزيارة، أهمّها زيارة الأئمّة والهداة المعصومين عليهم السلام. مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الزيارة ـ وكما قلنا ـ تعني الإتيان في دار

المزور للأنس به أو لحاجة إليه، وانطلاقاً من هذا المعنى فقد حُقّ لنا أن نسأل: إن كانت زيارة أئمّة الإسلام عليهم السلام بمعنى اللقاء والتواجد في محضرهم، فما معنى وحكمة الذهاب إلى مكان ضمّ أجسادهم الطاهرة بعد رحيل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وشهادة المعصومين عليهم السلام؟

بعبارة أخرى هل أنّنا في مثل هذه الزيارات نذهب إلى لقائهم بالذات أم أنّنا نزور قبورهم أو الأرض التي ضمّت جثامينهم؟ فإن كانت الزيارة تخصّ وجودهم المقدّس فما الحاجة إلى السفر باتّجاه قبورهم الطاهرة؟ إذ يمكننا توجيه السلام إلى حقيقتهم النورانية من منازلنا، فتشملنا فيوضاتهم دون تجشم شيء من العناء. وإن أنّنا قمنا بزيارة قبور أولئك العظام فما ثمرة وفائدة مثل هذه الزيارة؟

لابدّ من التقديم للموضوع في معرض الردّ على هذه الأسئلة، إنّ الإنسان لا يقتصر وجوده على الروح، وإنّما هو روح وجسم، فلو كان مجرّد روح لاحتاج فقط إلى التعليمات الروحية لتهذيبها وتكاملها، ولو كان مجرّد جسم لكان الاهتمام بجسمه كافياً لكماله ونموّه.

لكنّ الإنسان مركّب من جسم وروح، ولهذا وضع خالقه برنامجاً لجسمه وأيضاً لروحه. فلو كانت التعليمات الإلهية مقتصرة على روح بني البشر فحسب، لما شملت الجسد وجوارحه، ولو اختصّت بالجسم دون سواه لكان الله تعالى قد

غفل (معاذ الله) عن روح وباطن الإنسان، وهو ممّا لا يليق بالله الحكيم.

لقد عدّ الشهيد آية الله محمّد باقر الصدر﵀ هذه النقطة من ميزات العبادات الإسلامية. فشمول أعمال الإسلام العبادية للخصائص الجسمية إلى جانب الأبعاد الباطنية وغير الحسّية، يعدّ من نقاط قوّة هذا الدين. ولعلّ تتبّع الأوامر الفقهية والأخلاقية للإسلام والتمحيص فيها يقود إلى نفس النتيجة. وهنا نورد ثلاثة مصاديق على سبيل المثال:

الذكر

يأتي التذكير أو الذكر في النظام الأخلاقيّ للإسلام بمعنى التوجّه القلبيّ والمعنويّ نحو الذات المقدّسة لله تبارك وتعالى والحقائق المقدّسة للعالم، أي الوجود المطهّر والمبارك للمعصومين الأربعة عشر﵈. ويحصل هذا التوجّه القلبيّ، حينما تتحرّك شفتا المرء ويلهج لسانه بعبارات الذكر.

ورغم أن «الحمد لله» هو في الواقع إطراء وثناء قلبيّ وباطنيّ، بيد أن هذا المعنى لا يتحقّق دون ترديد عبارة «الحمد لله» على اللسان. وبالطبع فإن أجرى امرؤ هذه العبارة القيّمة على لسانه دونما التفات بالقلب والذات إلى حقيقة الحمد كان كمن لم يمارس الذكر. والدليل على ذلك أنّ البعد الجسميّ يبلغ مرحلة الكمال بمعيّة البعد الروحيّ، بمعنى أنّ الذكر على اللسان يجب

أن يواكبه توجّه بالقلب، والعكس صحيح أيضاً.

الصلاة

تتجلى هذه النقطة أيضاً في الصلاة التي تعدّ أفضل عبادات الدين الإسلاميّ. فإذا التزم المصلّي بكافّة الآداب الظاهرية للصلاة، لكنّه لم يحصل لديه خشوع قلبيّ ولم يهتمّ بالبعد الروحيّ لها، فصلاته هنا لا اعتبار لمثلها. كما لو أنّه تحلّى بذلك الخضوع القلبيّ والباطنيّ لكنّه لم يقف باتّجاه القبلة.

بالرغم من معرفتنا بأنّ الله تبارك وتعالى لا يحدّه مكان وليس له مقرّ ماديّ؛ إذ إنّك تقف شطره أين ما ولّيت وجهك، بيد أنّه يجب عليك في الصلاة أن تقف باتّجاه الكعبة المشرّفة وتنطق بتكبيرة الإحرام، ثمّ تنحني بعد القراءة لتركع، وفي ذروة العرفان تتصاغر بكلّ وجودك في مقابل العظمة الإلهية مستقبلاً الأرض بالسجود معفّراً وجهك بالتراب. ولو لم يحصل ذلك لما توفّرت مقدّمات التوجّه والخشوع الباطنيّ للمصلّي، ولما أمكن له التوجّه كلّياً بباطنه.

الحجّ

ينبغي لمن يقصد البيت الحرام أن يعلم أنّ الحجّ الحقيقيّ هو طواف القلب حول الكعبة الحقيقية، أي وجود الذات الإلهية المقدّسة. فإن لم يتوجه الحجّاج من أعماق وجودهم إلى الطواف بتلك الحقيقة المقدّسة فإنّهم لن يبلغوا المنى حتى لو

طافوا آلاف المرّات بأحجار الكعبة.

الكعبة أحجار كنبراس يؤمّها القاصد

أيّها الحاجّ أحرم بحثاً عن المقصود

ولكن هذا الطواف الباطنيّ لا ينال إلا بالمقدّمات الحسّية والظاهرية. وعلى المسلم في موسم الحجّ أن يعدّ عدّته ويرحل إلى ذلك المكان المقدّس كي يتزوّد في ظلّ مناسك الحجّ الحماسية بالحقيقة النورانيّة، ويكون الإحرام والتلبية والسعي والأضحية مقدّمة لبلوغ السموّ الروحيّ والمعنويّ.

طواف على الأرض وسير في الأفلاك

إلى هنا عرفنا أنّ هناك اهتماماً بالبعدين الروحيّ والماديّ في العبادات الإسلامية، أمّا الآن فنتناول بالبحث الزيارة التي تعدّ واحدة من أفضل عبادات الإنسان المؤمن.

تعني الزيارة التوجّه القلبيّ إلى حقيقة الإنسان الكامل والمقابلة الباطنية مع وجوده المقدّس. من جهة أخرى، لم يعرف أحد مآله والغاية من خلقته ولا يصل إلى الكمال إلا في ظلّ الارتباط بالإنسان الكامل. بل إنّ نفس هذه العلاقة لا تبلغ مرحلة الكمال سوى بالتوجّه الحسّيّ والظاهريّ. فلو أدرك قلب المؤمن حقيقية سيّد الشهداء عليه السلام وصار يتحرّق من فراق الوجود المقدّس لإمام العصر والزمان «عجّل الله تعالى فرجه الشريف»، فإنّ ذلك الإدراك وذلك التحرّق سيبلغان الذروة حينما يشدّ

الرحال نحو كربلاء المقدّسة أو سرداب سامراء المقدّس.

وهكذا الحال في زيارة عاشوراء التي تقرأ في الحائر الحسينيّ، إذ ستكون مختلفة تماماً عن زيارة عاشوراء حينما تقرأ في أماكن أخرى. وهكذا هو شأن مناجاة عرفة في صحراء عرفات، وزيارة الإمام الرضا عليه السلام في مشهد المقدّسة، إذ تختلفان عمّا لو جرت كلماتهما على اللسان في أماكن أخرى.

وما من شكّ أنّ إرضاء البعد الحسّي للإنسان واحد من حِكم زيارة قبور الأئمّة عليهم السلام، فالتواجد في تلك الأماكن المقدسة يضفي على المرء أجواء من الصفاء والنقاء ما يؤهّله ذاتياً ومن القلب لتوجّه أكثر كمالاً وعمقاً. وبعبارة أدقّ يقصد المرء في هذه الزيارات أماكن معيّنة من الأرض، لكنّ خطواته تعرج به ليسير في الأفلاك.

وهنا لا ينبغي لنا تناسي هذه النقطة، وهي أنّ الأصل في الزيارة هو الحضور الباطنيّ عند الإمام المعصوم عليه السلام، وأنّ هذه المناسك والأعمال الظاهرية تمهيد لبلوغ حالة الحضور القلبي. ومن هذا المنطلق ما كان للمرء ـ مهما تكرّرت زياراته لمشهد الرضا وكربلاء الحسين ـ أن ينعم بفيض منها ما لم يزر بتوجّه ومعرفة.

على أنّه توجد لزيارة قبور الأئمّة عليهم السلام حِكم أخرى، منها أن مثل هذه الزيارة من شأنها تكريم منزلته، فكما أنّ أرواحهم المقدّسة عزيزة وسامية، فإنّ كلّ ذرّة من ترابهم المقدّس سامٍ

ومقدّس. وقد ورد في زيارة «**الجامعة الكبيرة**»:

«**أرواحُكُم في الأرواحِ، وأجسامُكُم في الأجسامِ، وأجسادُكُم في الأجسادِ، و..**».

ما أقرب المقصود!

السؤال المطروح هنا: إذا كانت الزيارة متمثّلة بمواكبة التوجّه القلبيّ إلى الشعائر الجسمية والظاهرية، إذاً فماذا ينبغي أن نفعل حينما لا نستطيع الوصول إلى مراقد الطاهرين من أرباب العصمة عليهم السلام؟ وهل سنحرم فيض هذه النعمة الثمينة؟

كما أسلفنا القول في المقطع السابق، فإنّ الأصل في الزيارة هو الحضور الباطنيّ في حضرة الإنسان الكامل بينما الأعمال الظاهرية هي بمثابة العامل المكمّل للزيارة، فإن لم تتوفّر الفرصة لنا لشدّ الرحال نحو كربلاء المقدّسة والسرداب المقدّس في سامراء والنجف الأشرف والكاظمية المقدّسة والبقيع المقدّس والمدينة المنوّرة ومشهد المقدّسة فلا ينبغي أن نحرم أنفسنا من بركات زيارتهم.

لقد علّمنا الأئمّة عليهم السلام كيف نزورهم في مثل هذه الظروف؛ إذ يمكن لـ «الزيارة من بُعد» أن توصلنا إلى فيض الينابيع النورانية.

إن لم تستطع الحضور في يوم عاشوراء في الحائر الحسينيّ فاذهب إلى الصحراء وقف على مكان مرتفع تحت أشعّة الشمس واقرأ هناك زيارة عاشوراء. وفي صباح كلّ جمعة،

وحينما تنشر الشمس أشعّتها الذهبية على البسيطة تذكّر شمس عالم الوجود (الإمام المهديّ «عجل الله تعالى فرجه الشريف») واقرأ دعاء الندبة وزره بتلك العبارات التي وصلت إلينا عن ألسنة المعصومينعليهم السلام. وإن لم تنقلك قدماك إلى مراقد الإمام الجواد، والإمام الهادي، والإمام العسكريّ وغيرهمعليهم السلام، فأحي ذكرهم في قلبك وتوجّه إليهم بروحك مولعاً.

بل أكثر من ذلك يمكن مع شيء من التسامح القول: إنّ القصد من زيارة الأئمّة المعصومينعليهم السلام في الثقافة الإسلامية يلخّص في أمرين؛ مرّة لفظة الزيارة التي هي بمعنى الذهاب إلى المشاهد المشرّفة والتوسّل والتوجّه الباطنيّ لحقيقة الإنسان الكامل في ذلك المكان المقدّس، ومرّة بمعنى النصوص التي وصلت إلينا من جهة المعصومعليه السلام والتي تحمل مفاهيم ومعارف عميقة يمكن النهل من فيوضاتها في كافّة الجوانب، وهي نفسها التي يعبّر عنها بـ «الزيارة».

على أنّك تعلم أنّ أفضل الأعمال في الزيارة هو القسم الأوّل، أي الذهاب إلى المشاهد المشرّفة والحضور عند القبور الشريفة وقراءة نصّ الزيارة، أي القسم الثاني.

على هذا ـ ومن الآن فصاعداً ـ كلّما أوردنا لفظة «الزيارة» في الكتاب، فإن مرادنا منها هو «نصّ الزيارة، أي العبارات التي وصلت إلينا من قبل الأئمّة المعصومينعليهم السلام والتي يمكننا العثور عليها في كتب مثل مفاتيح الجنان وكامل الزيارات وما شابههما».

الزيارة مؤسَّسة[١]

هل المراد من الزيارة هو هذه الأفعال والأقوال السطحية والبسيطة التي يؤدّيها الناس لتلبية حوائجهم وشفاء مرضاهم، أو في أقصى حدّ إرضاء حوائجهم الروحية والمعنوية؟ أم الزيارة حقيقة أوسع من هذه الأعمال البسيطة والابتدائية؟

وسطور هذا الكتاب تضمّنت هذا السؤال الرئيس، وهو ما سنكتفئ على الإجابة عنه. وعلى نحو الإجمال نقول: إنّ الزيارة هي عبارة عن «مؤسسة» تنظّم سلوك وأفكار الزائر، ولتبيين الأمر لابدّ من تعريف مصطلح المؤسّسة.

ما المراد من المؤسّسة؟

المؤسّسة اصطلاح يحمل معاني متباينة في فروع العلوم الإنسانية المختلفة، فهناك فرق بين ما يذهب إليه الحقوقيون بشأن المؤسّسة، وبين ما يتبادر إلى ذهن علماء الاجتماع أو الفقهاء أو روّاد العلوم السياسية عند سماع هذا المصطلح، بيد أنّ لكلّ هذه التعاريف قاسماً مشتركاً نوليه في كتابنا هذا اهتماماً خاصّاً.

المؤسّسة مجموعة من المعارف والمقرّرات التي تنظّم فكر وعمل الناس في المجتمعات البشرية.

١- مؤسسة (Institution) مأخوذة من اصطلاح لاتيني (Instituer)، وهي بمعنى التأسيس والمؤسّس.

هذا التعريف الشامل يطال من جهة كيانات علم الاجتماع مثل، «العائلة» و «القبيلة»، ومن جهة أخرى الكيانات القانونية مثل «النكاح» و«الطلاق» و «الملكية»، ومن جهة ثالثة تشمل المفاهيم الاقتصادية مثل «الإنتاج» و«التوزيع» و«التبادل».

وعلى سبيل المثال لا الحصر تنضوي المؤسّسة القانونية للنكاح على مجموعة من المقرّرات التي تمنهج سلوكيات الإنسان بشأن الزواج والعلاقات الزوجية، وهذه المجموعة من الأوامر مدوّنة في قوانين ودساتير كلّ بلد.

بعد هذه المقدّمة، من المهمّ أن نعلم أن الزيارة في الثقافة الشيعية هي بمثابة مؤسّسة، بمعنى أنّها مجموعة من المعارف، أو لنقل مجازيّاً أنها أوامر تؤسّس لفكر وعمل الزائر في إطار هدف سام، لكنّ هذه المؤسّسة شأنها التحريف، شأنها في ذلك شأن سائر المؤسّسات الثقافية والأخلاقية الشيعية.

والعامّة من الشيعة ينظرون إلى الزيارة على أنّها لا تعدو كونها تكريماً واحتراماً لمرقد الإمام المعصوم، فيما تقرأ زيارة عاشوراء للتبرّك، ويطاف حول مرقد الإمام الرضا عليه السلام طلباً لشفاء مرضى الجوارح وغفران الذنوب، وبذلك ظهر في مؤسّسة الزيارة المتجدّدة والقيّمة تحريف أساس.

من هنا ندخل روضة زيارة عاشوراء الفسيحة.

تتميّز زيارة سيّد الشهداء عليه السلام بميزة خاصّة بين كافّة زيارات الأئمّة عليهم السلام، وقد ورد تأكيد كبير للاستمرار عليها. فأئمّتنا

المعصومون عليهم السلام ما فتئوا يحثّون الشيعة على زيارة الإمام الحسين عليه السلام في كلّ مناسبة. ففي عيد الفطر الأغرّ، وفي عيد الأضحى، ويوم عرفة، وليالي القدر وليلة الجمعة، كلّها أوقات مباركة، ومن أعمالها المستحبّة هو زيارة الإمام الحسين عليه السلام، بل ورد في بعض الروايات أنّ فضيلة زيارة أبي الأئمّة عليهم السلام تفوق فضيلة زيارة بيت الله الحرام.

زيارة عاشوراء منهجية معرفية وأخلاقية وسياسية

انطلاقاً من كون أن زيارة الأئمّة وخاصّة زيارة عاشوراء مؤسّسة، فهي إذاً وسيلة ممنهجة لأفكار وسلوكيات الزائر، بل هي مدرسة تهتمّ بتربية وتعليم الشيعة. ونضرب هنا أمثلة لثلاثة أقسام من تعليمات هذه المدرسة الكبيرة:

ألف: معرفة الإمام

تعليمات القسم الأوّل ترتكز على معرفة أهل البيت والأئمّة المعصومين عليهم السلام، فمتى ما ورد الحديث عن زيارة الأئمّة الأطهار عليهم السلام جرى التركيز على معرفتهم الحقة، «**من زار الحسين عليه السلام عارفاً بحقّه..؟**».

ذلك أنّ الزيارة مدرسة لمعرفة الإمام المعصوم والإنسان الكامل، وهي وسيلة لنعرف مَن هؤلاء؟ وماذا قالوا؟ وكيف كانت حياتهم ومماتهم؟ وماهي إفرازات سلوكياتهم الفردية ووضعهم الاجتماعيّ وتعاملهم السياسيّ وموقعهم العلميّ؟

فمثلاً تعدّ زيارة «**الجامعة الكبيرة**» الواردة عن لسان الإمام عليّ الهادي عليه السلام بمثابة دائرة معارف قيّمة في معرفة الإمام المعصوم عليه السلام. وكذا ورد في زيارة عاشوراء:

«**اللهمَّ اجعل محيايَ محيا محمّدٍ وآل محمّدٍ ومَماتي مَماتَ محمّدٍ وآلِ محمّدٍ .. فأسألُ اللهَ الذي أكرَمني بمعرِفتِكُم ومعرِفةِ أوليائكُم..**».

إذاً فالزيارة على نحو العموم، وزيارة عاشوراء على نحو الخصوص، تعدّ مؤسّسة ثقافية، تنظّم أفكار الزائر بشأن الإمام المعصوم عليه السلام وتحرّره من الأوهام والتخيّلات الواهية بشأن مقام ومنزلة أئمّة الدين عليهم السلام.

ب: التربية الأخلاقية

تعليمات القسم الثاني هي التعليمات الأخلاقية التي تجعل الزائر يقوّم سلوكياته الأخلاقية وفقاً لذلك النظام. وهذا المعنى يلمسه في غير مكان من نصوص الزيارات حيث تجري الإشارة فيها إلى الأبعاد الأخلاقية للإمام المعصوم عليه السلام، وتقوده لا إراديّاً إلى الإحساس بتلك الأجواء الروحيّة الرائعة. والظريف أنّ الزيارة تذكّر الزائر بضرورة التحلّي بخصال الإمام المعصوم الأخلاقية إن كان يعتبره أسوة له.

وعلى غرار ذلك، حينما يتوجّه الزائر بقلبه وبكلّ وجوده وذاته إلى زيارة سيّد الشهداء عليه السلام ويسلّم عليه، يشعرحينئذ بأنّه أمام وجود مقدّس تجسّدت وتجلّت فيه كافّة المواهب الروحية

والأخلاقية. وبعبارة أخرى يجد نفسه أمام عالم من الإيثار والإخلاص والعبودية والشجاعة والحلم والصبر والزهد.

وفي الواقع يكون السلام على مثل هذه الشخصية بمثابة سلّم يرقى بالزائر إلى مراتب أعلى في مختلف الأبعاد الأخلاقية.

ومن غير مبالغة، فإن قصدَ المرء النجف الأشرف وتشرّف بالمثول بين يدي رجل التاريخ عليّ بن أبي طالبعليه السلام دون أن يستشعر فضائله الجمّة، أو يستلهم منها ما يرقى به في سلّم الفضيلة والأخلاق، يعني أنّه كمن لم يذهب لزيارته.

ج: التربية السياسية

فضلاً عن البعد التربويّ وتهذيب المرء أخلاقيّاً ومن الباطن، فإنّ زيارة الأئمّةعليهم السلام ولاسيّما زيارة عاشوراء تعدّ مؤسّسة سياسية قويّة. فالخطّ السياسيّ الأحمر لآل النبيّ «عليهم الصلاة والسلام» سيبقى نابضاً مع مؤسّسة الزيارة إلى يوم القيامة، وفي الحقيقة يبقى الشيعي زائراً مدى الدهر.

ونردّد في زيارة عاشوراء اللعن على مَن قتل الحسينعليه السلام، ومَن مهّد لقتله، ومَن رضي بقتله إلى يوم القيامة..

«إنّي سِلمٌ لِمَن سالمكُم وحربٌ لِمَن حاربكُم إلى يوم القيامة»

نعم، إنّه تمسّك بالخطّ الذي محوره آل بيت الرسالةعليهم السلام.

أليست النقطة هذه منهجاً سياسياً؟ فالزائر لا يكتفي بلعن يزيد ابن معاوية وإبداء كرهه ومعاداته له، بل ويلعن يزيد زمانه ويعرب عن استعداده لمحاربته والتصدّي لكلّ ظلَمَة زمانه.

وهكذا، يعرف «حسين» زمانه، ويسالم الحسينيّين قـولاً وعمـلاً، ويظهر لهم ودّه، ويسير في ركب واحد معهم.

وهـذه الـزيارة ـ التـي تغطّي كـافّة أبعاد الزائر المختلفة ـ لو قُرئت بتوجّه قلبيّ تزينه المعرفة بمنزلة الإنسان الكامـل لكانـت بلا ريب مربّية ومهذّبة وتوصل الإنسان إلى المقصد.

قال الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادقعليه السلام:

«مَن زارَ الحسينَعليه السلام عارفاً بحقّهِ كتبَ الله له ثواب ألفِ حجّة مقبولةٍ وألفَ عُمرةٍ مقبولةٍ، وغفرَ لهُ ما تقدّمَ من ذنبهِ وما تأخّر»[1].

١- *بحار الأنوار*، ج ٩٧، ص ٢٥٧.

الخيمة الثانية

مائدة السماء

رواة أمناء

نستعرض في هذا الفصل المخصّص لسند زيارة عاشوراء ثلاثة محاور..

١ـ ما هو السند؟

٢ـ لماذا نناقش سند زيارة عاشوراء؟

٣ـ مناقشة سند زيارة عاشوراء.

ما هو السند؟

انتقلت معارف أهل البيت عليهم السلام ـ وهم عيبة علمه تبارك وتعالى ـ إلينا بواسطة كلامهم القيّم. ومن كان يعيش في عصر الإمام المعصوم عليه السلام، أمكنه التشرّف بخدمته والنهل من فيض كلامه، لكنّه وبعد عصر المعصومين صارت الأحاديث والروايات الواردة عنهم هي السبيل الوحيد للارتباط بهم والاغتراف من

نبعهم الصافي.

ولكي تصل أحاديث وروايات الأئمّة الأطهار عليهم السلام إلى أيدينا، خاصّة قبل ظهور صناعة الطباعة والنشر، كان لابدّ من وجود واسطة تنقل كلامهم من جيل إلى آخر. ويطلق على مجموعة الأشخاص الذين ينقلون الرواية من جيل إلى آخر اسم «سلسلة السند»، كما يسمّى كلّ شخص يرد اسمه فيها بـ «الراوي».

لماذا نناقش سند زيارة عاشوراء؟

في معرض الإجابة عن هذا السؤال لابدّ من التقديم له بنقاط:

أ: الوجود، كيان متناغم

إنّ عالم الوجود بكلّ وسعته وتعقيداته أشبه ما يكون بجسم عظيم يتّسم قوامه وأعضاؤه بالتناسق الكامل، ويتحرّك نحو الكمال والتسامي. والنظام المتقن هذا يُطلق عليه في الفلسفة الإسلامية «النظام الأحسن»، وكلّ تغيّر يطرأ على كلّ من أجزائه يؤثّر في سائر الأجزاء الأخرى.

في خضمّ ذلك يكون تأثير الأفعال الاختيارية للإنسان في عالم الوجود أكبر وأهم من باقي الأجزاء الأخرى. فكلّ فعل يصدر عن الإنسان يترك أثره بشكل مباشر أو غير مباشر على العالم الماديّ، والأهمّ من ذلك تأثير أفعال الإنسان في العالم اللاماديّ. وهذا قد يفسّر معنى أنّ أساس الجنّة وجهنّم هو حقيقة أفعال الإنسان الاختيارية التي تتجسّد في عالم ما وراء

الطبيعة، إذ إنّ كلّ عمل يصدر عنك في هذه الدنيا، له حقيقة ستراها في الآخرة، وهذا العالم كالجبل وفعلنا كالصوت! وكما أنّ العالم جبل كبير فإنّ صدى أفعالنا سيعيده إلينا.

ب: السعادة والشقاء

تلوّح كافة الأديان والمذاهب والمدارس الفكرية براية إيصال البشرية إلى السعادة. ولكن ما هي «السعادة» حقّاً؟ الثقافة الإسلامية تنظر إلى السعادة على أنّها لذّة دائمية عميقة لا نفاد لها. ومن هنا فإنّ الثقافات والمذاهب الأخرى التي تقود الإنسان إلى غير هذه اللذّة تكون في الحقيقة قد ساقته إلى حافّة الشقاء.

ولا تُنال اللذّة الدائمية والعميقة وغير المنتهية إلا في عالم الآخرة، ذلك أنّ اللذات المادّيّة قابلة للنفاذ من جهة، ومن جهة أخرى مصحوبة بالمصائب والآهات ممّا يقلّل من حجم لذّتها. وكما أنّ الأعمال الاختيارية للإنسان توجد له السعادة الأبدية، فليس لأحد الزعم أن يأخذ بقدرته بيد البشرية إلى السعادة إلا من له معرفة بالروابط بين أجزاء العالم وتأثير الأفعال الاختيارية للإنسان في العالم.

ج: من هو الذي يعرف؟

ليس للعقل المادّيّ للإنسان العاديّ القدرة على إدراك ومعرفة كنه الروابط بين أجزاء هذا العالم، لاسيّما تأثير العالم المادّيّ في العالم غير المادّيّ، ذلك أنّ الحواسّ الظاهرية عاجزة في الأساس

عن استيعاب خصائص العالم غير المادّيّ. وهكذا عقل الإنسان الذي لا يعرف عن ذلك العالم سوى ما كان على نحو الإجمال. بمعنى أن لا أحد له علم كامل بالروابط بين أجزاء العالم وتأثيراتها المتبادلة في بعضها سوى من له علم حضوريّ بها، أي أنّ كافّة العوالم بكلّ وسعتها حاضرة بين يديه، وما ذلك إلا خالق العالم، أي الذات الإلهية المقدّسة.

على أنّ هناك حقيقة نورانية متواجدة بين المخلوقات لها اطّلاع على هذه الروابط المعقّدة وتأثيراتها الواسعة. وهذه الحقيقة الكبيرة هي مخلوق منح دور الواسطة في نشوء الخلقة، الوجود الذي يمثل أوّل خلقة لله تبارك وتعالى، ولأجله خلق عالم الوجود.

وهذه الحقيقة المقدسة هي الوجود النورانيّ لأئمّة الهدى عليهم السلام، والذي قدّمنا له سالفاً في سطور هذا الكتاب. إذاً فالله سبحانه وتعالى وحده هو المطّلع على كافّة روابط عالم الوجود وتأثيرها المتبادل، ثمّ خصّ بذلك من بعده الوجود النورانيّ للأئمّة المعصومين عليهم السلام.

حقّ التقرير لمن؟

نستنتج من هذه المقدّمات الثلاث أنّ حقّ التقرير ووضع الأسس والقواعد والقوانين بشأن أفعال الإنسان الاختيارية يرجع إلى من له إلمام بكافّة روابط أجزاء العالم وتأثيرها المتبادل في

بعضها. وبعبارة أوضح يكون لله جلّ وعلا ولأئمّتنا المعصومين (بإذن منه تعالى) وحدهم حقّ إيجاد ووضع المقرّرات لتنظيم الأفعال الاختيارية للإنسان، بينما يقتصر حقّ الناس في وضع القوانين لشؤون حياتهم على «**منطقة الفراغ**» فحسب.

و «**منطقة الفراغ**» في الواقع هو اصطلاح موجود في «علم الأصول»، وهو يُعنى بالمجالات التي سمح الله تبارك وتعالى والأئمّة المعصومون عليهم السلام للناس فيها بوضع كلّ قانون يريدونه لأنفسهم. وربما أمكن القول: أنّ «**منطقة الفراغ**» هي فسحة الأعمال المباحة شرعاً. إذاً يقتصر إيجاد وتعيين القرارات الخاصّة بمنطقة الحلال والحرام والمستحبّ والمكروه على الله تبارك وتعالى والمعصومين عليهم السلام، وليس لأحد الحقّ بالتدخّل في هذه المنطقة.

ولهذه المنطقة قوانين كثيرة جدّاً تجسّدت على شكل مؤسّسات مختلفة، وشكّلت «نظاماً مؤسّساتياً» باسم الدين الإسلامي بحيث له القدرة على تنظيم الأفعال الاختيارية للإنسان.

ويمكن استنباط واستخراج قوانين هذه المؤسّسات من أحاديث وروايات المعصومين عليهم السلام وبالاستفادة من علوم المقدّمات كدراسة الأدب العربيّ والفقه وأصول الفقه وعلم الرجال والدراية والحديث والتفسير وما إلى ذلك.

وفي ظلّ تهافت جمع من الجهلاء وأصحاب النزوات على المصالح السياسية والمالية وما شابه ذلك، عمد هؤلاء إلى تزوير

عدد كبير من الأحاديث التي وردت في مصادرنا الروائية دون التفكيك بينها وبين الأحاديث الصحيحة والقطعية الصدور عن الأئمّةعليهم السلام، الأمر الذي يجعل دراسة سلسلة السند في الأحاديث يحظى بأهميّة فائقة لكلّ ذي لب.

وفي هذا المضمار ينهض «علم الرجال» بمهمّة دراسة سلسلة سند الأحاديث، فعلماء هذا القسم يعمدون وفقاً لقواعد محدّدة إلى دراسة كلّ واحد من رواة سلسلة السند حيث يقسّمونهم في المجموع إلى «**ثِقة**» و«**غير ثِقة**».

فلو حصل أن تخلّل سلسلة سند الحديث راو غير ثقة، لوضع هذا الحديث جانباً؛ إذ يمكن أن يكون واحداً من الأحاديث المزوّرة، وغير صادر عن الأئمّة المعصومينعليهم السلام.

خلاصة القول: إنّ سند الزيارات على نحو العموم، والزيارة الخاصّة بهذا الكتاب «عاشوراء» على نحو الخصوص يجب أن تخضع للدراسة والتمحيص حتّى نتيقّن من صدورها عن الأئمّةعليهم السلام، ذلك أنّنا نعتبرها مؤسّسة، وننظر إليها على أنّها منهج ينضّد الأفكار والأفعال الاختيارية للزائر.

مناقشة سند زيارة عاشوراء

وردت زيارة عاشوراء بطرق متعدّدة وبسلاسل سند مختلفة، أهمّها سلسلتان ذكرها الشيخ الطوسيقدس سره (من كبار فقهاء المذهب الشيعيّ) في كتاب «**مصباح المتهجّد**».

وسلسلة السند الأوّل تنتهي إلى الإمام محمّد الباقرعليه السلام، فيما تنتهي سلسلة السند الثاني إلى الإمام جعفر الصادقعليه السلام. بمعنى أنّ مجموعة الرواة الأولى نقلوا نصّ زيارة عاشوراء من لسان الإمام الباقرعليه السلام، بينما نقلت المجموعة الثانية النصّ عن لسان الإمام الصادقعليه السلام، وأفراد كلا المجموعتين محلّ ثقة. ومن بين المجموعتين سنختار سلسلة السند الأوّل؛ يقول الشيخ الطوسيّ في كتابه «**مصباح المتهجّد**»:

روى محمد بن إسماعيل بن بزيح عن صالح بن عقبة، عن أبيه، عن أبي جعفرعليه السلام؛ قال: «**من زار الحسينعليه السلام في يوم عاشوراء من المحرّم ..**».[1]

في مطلع هذه الرواية يتحدّث الإمام الباقرعليه السلام عن ثواب زيارة عاشوراء، ثمّ يقرأ نصّها.

إنّ كافّة الرواة الواردة أسماؤهم في السلسلة النورانية لهذا السند هم محل ثقة، بحيث إنّ الرواية التي تنقل عنهم صادرة بلا شكّ ولا ريب عن لسان الإمام المعصوم عليه السلام. ولذا ليس هناك أيّ شكّ من أنّ زيارة عاشوراء هي قول الإمام المعصوم بعينه، وليس هناك أيّ احتمال بكونها مزوّرة أو مختلقة. وعلى سبيل المثال نتطرّق إلى عدد من رواة سلسلة هذا السند.

يعدّ الشيخ الطوسيّ ـ وهو آخر رواة هذه السلسلة ـ من فطاحل ونوادر فقهاء الشيعة، وهو ينقل زيارة عاشوراء عن

١- *مصباح المتهجّد*، ص ٧٧٢.

محمد بن إسماعيل، والأخير راو ينقل عنه الشيخ الطوسيّ الكثير، لكن النقطة المهمّة هنا أنّ الفاصل الزمنيّ بين الشيخ الطوسيّ ومحمّد بن إسماعيل طويل ويدعو إلى التأمل؛ أي لا يمكن أن يكون الشيخ الطوسي قد نقل الزيارة بشكل مباشر عن محمّد بن إسماعيل، ولذا فمن المؤكّد وجود رواة آخرين بينه وبين الراوي الأوّل. إذاً فمن هم الرواة الذين توسّطوا الحقبة الزمنية بين هذين العالمين الجليلين؟ وهل هم محلّ ثقة أو موثوق بهم أم لا؟

ينقل الشيخ الطوسيّ في الأساس زيارة عاشوراء عن الشيخ المفيدﷺ الذي يعتبر أحد أبرز فقهاء الشيعة وشمسها الساطعة في سماء الفقه الشيعيّ. ويكفي هذا الرجل منزلة رفيعة ومقاماً جليلاً ما جاء في رسالة الإمام المنتظر «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» إليه بمخاطبته إيّاه بالقول: «الأخ السديد، الشيخ المفيد ..».

ثم إنّ الشيخ المفيد ينقل الزيارة عن الشيخ الصدوقﷺ الذي ينقلها بدوره عن والده، وكلاهما ألمعيّ وعالم في عالم الفقه والفقاهة. وحسب أرباب علم الرجال فإنّ محمّد بن إسماعيل شخص موثوق به قطعاً وليست عليه أيّة شائبة. أما محمّد بن إسماعيل فينقل عن صالح بن عقبة الذي يعد هو الآخر محلّ ثقة ولم ترد فيه أيّة مثلبة أو منقصة في أمّهات مصادر علم الرجال.

وانطلاقاً من هذه السلسلة النورانية ندرك على وجه اليقين أنّ ما نقرؤه من سطور وكلمات تحت عنوان زيارة عاشوراء، هي

عبارات جرت على اللسان الطاهر للإمام الباقرعليه‌السلام حسب هذا السند، ونطقت بها الشفاه المباركة للإمام الصادقعليه‌السلام وفقاً للسند الثاني. وفي الحقيقة أنّها مائدة سماوية مباركة وصلت إلينا بواسطة أشخاص مباركين ومحلّ ثقة.

أهمّية وآثار زيارة عاشوراء

كما أسلفنا القول فإنّ زيارة عاشوراء وصلت إلينا بسلسلة سند صحيحة عن الإمام الباقرعليه‌السلام، وأخرى صحيحة أيضاً عن الإمام الصادق عليه‌السلام. لكن الإمامان الصادقانعليهما‌السلام لم يكتفيا بتعليمنا نصّ الزيارة، وإنّما تحدّثا عن أهمّيتها وقيمتها وكذلك آثارها وفوائدها. والحقيقة أنّ كلامهماعليهما‌السلام بشأن زيارة عاشوراء كاف لبيان أهمّيتها ورفيع منزلتها.

فبعد أن يعلّم الإمام الباقرعليه‌السلام، الزيارة لعقبة، أبي صالح ـ وهما من رواة الزيارة ـ يقول:

فإنّكَ إذا قلتَ ذلكَ، فَقد دعَوتَ بما يدعُو بهِ مَن زارَهُ مِن الملائكة، وكتبَ الله لكَ بها ألفَ ألفَ حسنة، ومَحا عنكَ ألفَ ألفَ سيّئة، ورَفعَ لكَ مائةَ ألفَ ألفَ درجة، وكنتَ كمَن استشهدَ مع الحسينِ بنِ عليّعليهما‌السلام حتّى تُشاركَهُم في درجاتِهم، لا تعرَّفُ إلا في الشهداءِ الذين استشهدوا معَهُ، وكُتِبَ لكَ ثوابُ كلِّ نبيٍّ ورسولٍ وزيارةِ كلِّ مَن زارَ الحسينَ بنَ عليّعليهما‌السلام منذُ يومَ قُتِلَ

صلواتُ الله عليه.[١]

ولابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ هـذا الكـلام صـادر عـن إمـام معصوم[٢]، ونقل عنه بنفس ذلك السند الدقيق والمتين والرصين.

ولعلّك وقفت تماماً علـى أنّ مجـرّد قـراءة العبـارات العربيـة للزيارة دونما أيّ توجّـه إلـى معانيهـا ودونمـا الشـعور بالحالـة الخاصّة للزيارة لـن تسـتتبعها مثـل تلـك الآثـار القيّمـة. وعلـى العكس. إن قرأت هذه الزيارة عارفاً بحقّ الإمـام تمامـاً وبتوجّـه قلبي وتستشعر في تلك الحال موقفك الذي أنت فيـه وإلـى مَـن تتحدّث، فإنّها ستصيّرك حسينياً، وستنال ثوابها وتنعم بنتائجها.

ورقة ضمان من العرش

أمّا الإمام الصادقعليه السلام فبعد تعليمه الزيـارة والـدعاء المتعلّـق بها، يقول لـ «صفوان الجمّال» وهو من رواة سلسلة السند الثاني:

«تعاهَد هذهِ الزيارةَ وادعُ بهذا الدعاءِ وزُر به، فإنّي ضامنٌ على الله تعالى لكلِّ مَن زارَ بهذهِ الزيارةِ ودعا بهذا الدعاءِ من قُرب أو بُعدٍ، إنّ زيارتَـه مقبولـةٌ وسـعيَهُ مشـكورٌ وسـلامَهُ واصِـلٌ غيـرُ محجوب؛ حاجتُهُ مقضيّةٌ من الله تعالى بالِغاً ما بلغَت، ولا يخيّبـهُ. ياصفوانُ وجدتُ هذهِ الزيارةَ مضمونةً بهـذا الضـمانِ عـن أبـي،

١- *بحار الأنوار*، ج ٩٨، ص ٢٩٠.

٢- المعصوم من لا تصدر عنه المعصية ولا الخطأ ولا الاشتباه ولا النسيان، ولا ينطق مطلقاً بأيّ كلام غير واقعيّ أو جزافاً.

وأبي عن عليّ بنِ الحسين عليهما السلام مضموناً بهذا الضمان عنِ الحسين، والحسينُ عنِ أخيه الحسنِ مضموناً بهذا الضمان، والحسن عن أبيهِ أمير المؤمنينَ عليه السلام مضموناً بهذا الضمان، وأميرُ المؤمنينَ عن رسول الله صلى الله عليه وآله مضموناً بهذا الضمان، ورسولُ الله عن جبرئيلَ عليه السلام عن الله «عزّ وجلّ» مضموناً بهذا الضَمان، وقد آلى الله «عزّ وجلّ» على نفسه «عزّ وجلّ»؛ أنّ مَن زارَ الحسينَ بهذهِ الزيارةِ مِن قُربِ أو بُعدٍ ودعا بهذا الدعاءِ قُبلت منهُ زيارتُهُ، وشفّعته في مسألتهِ بالِغاً ما بلغَت، وأعطيتُهُ سؤلَهُ، ثم لا ينقلِبُ عنّي خائباً، وأقلِبَهُ مسروراً قريراً عينُهُ بقضاءِ حاجتهِ والفوز بالجنّة والعِتق من النار، وشفّعتهُ في كلٍّ من شفّعَ خلا ناصب لنا أهلَ البيتِ؛ آلى الله تعالى بذلك على نفسهِ، وأشهدنا بما شهدَت به ملائكةُ ملكوتهِ على ذلك. ثم قالَ جبرئيلُ: يا رسولَ الله، إنّ الله أرسلَني إليكَ سروراً وبُشرى لكَ، وسروراً وبُشرى لعليّ بنِ أبي طالب وفاطمةَ والحسنِ والحسينِ وإلى الأئمّة من وُلدِكَ إلى يومِ القيامة، فدامَ يا محمّدُ سرورُكَ وسرورُ عليٍّ وفاطمةَ والحسينِ والحسينِ والأئمّة وشيعتِكُم إلى يومِ البعثِ. ثم قالَ لي أبو عبد الله: يا صفوان إذا حدثَ لكَ الحاجةُ فزُر بهذه الزيارة من حيثُ كُنتَ، وادعُ بهذا الدعاءِ وسَل ربّكَ حاجتَكَ تأتِكَ من اللهِ، والله غيرُ مُخلِفٍ وعدَهُ ورسولهُ صلى الله عليه وآله بمنّهِ والحمدُ لله.[1]

١- *بحار الأنوار*، ج ٩٨، ص ٢٩٩.

درع الشجاعة

مثلما لاحظت أشار الحديثان المنقولان عن الإمامين الصادقين عليهما السلام في هذا الفصل، إلى قسمين من الفائدة والآثار؛

القسم الأول: ويتعلّق بالآثار المادّيّة والدنيوية، وهي ما أشارت إلى جانب منها الروايتان السابقتان. وما يلفت النظر في الجوانب المادّيّة هو أنّه ربما لا تكون تلبية تلك الطلبات في الدنيا أحياناً من مصحلة الشخص الزائر، لكنّه ينبغي له الإيمان أنّ الله تبارك وتعالى سيعوّض له مسألته تلك في الآخرة.

القسم الثاني: ويتعلّق بالآثار والنتائج الأخروية لهذه الزيارة، والتي قد لا يمكننا تصوّرها لقصر في إدراكاتنا وعقولنا، إذ تعجز أذهاننا وأفكارنا عن الإلمام بكنه ذلك الثواب. علماً أنّ التفضّل بمثل هذا العطاء من الثواب ليس بعجيب ولا ببعيد عن القدرة والرحمة الإلهية الواسعة. ورغم أنّ الروايتين المنقولتين عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام تطرقتا إلى قسمين من الآثار والفوائد لهذه الزيارة، إلا أنّ هناك أيضاً آثاراً أخرى ستلمسها بالاستمرار على قراءتها.

إنّ الاستمرار على قراءة زيارة عاشوراء تزيد في نفس الإنسان القدرة والاستعداد على درك الفضائل. ومن تلك الفضائل الإنسانية العظيمة هي امتلاك روح الحماس والشجاعة. فحينما يرى الزائر نفسه بين يدي رمز الشجاعة في عالم الوجود، تدبّ فيه روح البطولة والإقدام. هذا فضلاً عن أنّ نفس مفردات زيارة

عاشوراء هي الأخرى تعزّز هذه الروحية في نفس الشـخص. إنّ تأكيد التولّي والتبرّي واللعن وذكر اسم أعداء الله وأوليائـه يبلـغ بالزائر إلى مستوى الغيرة المقدّسة، وهذا من البركات القيّمة جدّاً لزيارة عاشوراء.

نظرة عابرة إلى مضامين زيارة عاشوراء

قبل أن نخوض في نصّ هذه الزيارة الشريفة بصفتها مؤسّسة غنيّة بين مجموعة من المؤسّسات الشيعية، ونتأمّل فـي مختلـف أقسامها، من المناسب أن نقف ولو وقفة قصـيرة عنـد محاورهـا الرئيسة، إذ سنتطرق في هذا الكتاب إلى ثمانيـة محـاور رئيسـة تضمّنتها زيارة عاشوراء:

١. السلام تعبير عن محبّة خالصة

النقطة الأولى التي تلفت نظر الزائر إلـى هـذه الزيـارة أنـواع السـلام المختلفـة والخاصّـة علـى الوجـود المقـدّس للإمـام الحسين عليه السلام وأصحابه. فالزيارة تبدأ بالسلام وتنتهـي بـه كـذلك. وفي الحقيقة أنّ السلام يعبّر عن عمق علاقة ومحبّة يفصح عنهـا الزائر ويكون الباب لدخوله الأجواء العرفانية.

٢. عاشوراء حسرة مفجعة

ليس من المغالاة فـي شـيء القـول: إنّ اسـتيعاب كنـه هـذه المصيبة يحتاج إلى ما هو أوسع من فكر وفهم الإنسان العـاديّ. فهذه المأساة الكبيرة لا تعتصر فقط صدور وقلوب أهـل الأرض

ألماً، وإنّما غطّت آهاتها سكّان السماوات وأهل العرش وسائر نظام الوجود. إنّها من العمق ما يعجز عن إدراكها قابلية الإدراك الماديّ في الحياة الدنيوية والحياة الحيوانية. ولم يشأ الله تعالى أن تتّضح حقيقة هذه المصيبة في الدنيا؛ وإنّما سيزاح الستار عن أبعادها المختلفة في يوم البعث، يوم إزاحة الستائر.[١]

ووردت في الزيارة عبارة «**أكرمَ مقامَكَ وأكرَمَني بك ..**»، حيث الإشارة إلى الكرامة الذاتية لسيّد الشهداء عليه السلام والمنزلة الرفيعة التي حباه الله تعالى بها، وعظمة واقعة الطفّ مرتبطة أيّما ارتباط بكرامته الفريدة. وعندما يعرف الإنسان أنّ السهم أصاب في يوم عاشوراء قلب العالَم، وأنّ الحجر كسر رأس عالم الوجود، حينها فقط سيستوعب شيئاً من تلك المصيبة العظمى.

وتلك المصيبة التي لم تعمّق فقط كمَد قلوب المسلمين لاسيّما الشيعة، بل وأخذت تعصف بعالم الوجود حتّى راحت أجزاؤه تتصدّع من فرط ذلك الزلزال المهيب. أوَليس خليفة الله في الأرض قد هتكت حرمته؟! الإمام بالحقّ، وواسطة الفيض الإلهيّ، الوجود المقدّس الذي بعُراه تعلّقت حياة العالم، ومن بركة وجوده تأكل المخلوقات.

٣. أحداث تاريخية مشؤومة

المفهوم السائد لوقائع التاريخ يثبّت أنّ هناك علاقة تربط بين

١- ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، الطارق: ٩.

تلك الوقائع، فالسنن الإلهية تفيد بأنّ كافّة الوقائع التي تحصل في عمق التاريخ توجد بينها علاقة أشبه ما تكون بعلاقة العلّة والمعلول؛ الأمر الذي نلحظه في عالم التكوين حيث يقوم الإيجاد والبقاء والفناء على أساس هذه العلاقة.

وفي البعد التحليليّ لا يمكن تجزئة الحدث التاريخيّ إلى صيغ وحالات مجرّدة وبمنأى عن الأمور التي مهّدت لذلك الحدث. بل تقتضي عملية الدراسة والمناقشة الرجوع إلى ماضي تلك الحادثة والاهتمام بالظروف التي مهّدت إلى تبلورها وظهورها. والملفت للنظر أنّ نصّ زيارة عاشوراء لم يهمل هذا الجانب، بل أشار إلى العوامل التي تظافرت على مدى ٦١ عاماً، منذ هجرة النبيّ المصطفىﷺ وقادت إلى استشهاد سبطه وخليفته الإمام الحسين عليه السلام في صحراء «الطف» عطشاناً غريباً. حقّاً، أين انعقدت نطفة هذه الواقعة المأساوية؟

سنجيب على هذا السؤال المهمّ في الفصل الثالث.

٤. اللعن المقدّس

يعود التأكيد الوارد للّعن في زيارة عاشوراء إلى ما قبل الإسلام، ذلك أنّه ما كانت حقيقة الإيمان لتتجلّى وتتجسّد ما لم يجر تثبيت البراءة من الكفر وإنزال اللعنة على ميول الظلم والجور المكنون في بني البشر. وبتعبير آخر؛ تتثبّت مراتب الاعتقاد بالحقّ على أساس مراتب اللعن للباطل. فكلّما ازداد نفور الإنسان من الطاغوت، كلّما تعمّق إيمانه بالله جلّ وعلا

أكثر فأكثر. وكلّما تضاعف حنق الإنسان وبغضه من فسّاد الأرض والطالحين فيها، كلّما ترسّخ واتسع حبّه وشوقه إلى خيار الناس والصالحين.

لا شكّ أنّ مثل هذا اللعن وهذا البغض مقدّس. وبالعودة إلى النصوص نرى أنّ الوحي الإلهي المبين ـ القرآن الكريم ـ قدّم الطاغوت على الإيمان.[١] وكذا فعلت زيارة عاشوراء حينما ركّزت على اللعن. أي على المؤمنين أن يكونوا في ذروة الامتعاض من أعداء الله تعالى من جهة، وينأون من جهة أخرى بأنفسهم عن أصغر مظاهر الشرك والنفاق.

٥. إعلان الوفاء

إنّ طيّ طريق الحسين عليه السلام الأحمر ينبغي أن يكون بخطوتي «التولّي» و«التبرّي». فالزائر يضع يده بيد أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ويوجّه قبضة يده الأخرى نحو وجوه أعداء الإسلام. فالشيعيّ ومنذ أن يرى النور وإلى حين يوسّد في لحده، يسير بخطى ثابتة في هذا المسير المضمّخ بالدم حاملاً معه الحبّ والبغض والسلام واللعن، وبعبارة مختصرة «التولّي» و«التبرّي»، يكون «حسينياً» على طول الخطّ.

وهذه الحقيقة القيّمة تفصح عنها عبارة «**إنّي سِلمٌ لمَن سالمَكُم وحربٌ لمَن حارَبَكُم**» الواردة في زيارة عاشوراء. حينما

---

١ - ﴿**فمَن يكفُر بالطاغوتِ ويُؤمِن باللهِ فقدِ استمسَكَ بالعُروةِ الوُثقى**﴾ البقرة: ٢٥٦.

يعبّر الزائر بمثل هذا الحزم والاعتقاد عن وفائه للحق وتنفّره من الباطل يكون قد ابتعد عن مجرّد إطلاق كلمات ومجرّد مجاملات لفظية. ولا ينبغي أن تكون عبارة «**إنّي سِلمٌ** ..» مجرّد لقلقة لسان، ثمّ هو يجلس في بيته آمناً تغشاه الدعة والراحة ويروم عيشة هادئة من غير منغّصات.

وحينما يقرأ الزائر الواقعيّ للإمام الحسين عليه السلام زيارة عاشوراء يقبلها بكلّ وجوده حتّى يوم القيامة، ومتى وأينما رأى مواجهة بين مظاهر الحقّ والباطل وقف في صفّ جبهة الحقّ متصدّياً لجبهة الباطل. والحقيقة أنّ زائر الإمام الحسين عليه السلام يقطع في هذه الزيارة على نفسه عهداً وعقداً بأن يكون دوماً ناصراً للحسينيين في زمانه ومكانه، ومحارباً لليزيديين فيهما.

٦. الإفشاء

رغم أنّ زيارة عاشوراء تكتفي في البداية بتوجيه سلام شامل وعامّ، إلا أنّها أفشت في سطورها التالية جذور الفتنة وأغصانها وأوراقها في زمن واقعة كربلاء وثمراتها ونتائجها إلى يوم القيامة.

وليس هذا فحسب، بل تعمد إلى ذكر أبرز شخصيات الباطل، فتورد أسماء قادة الظلم والجور واحداً بعد آخر، بمن فيهم الماضين منهم. وتريد زيارة عاشوراء من الزائر ـ ولكي ينضمّ إلى جبهة الحقّ وينتمي إلى الجيش الحسينيّ ـ أن يعرف عدوّه المقابل جيداً، ويشخّص هوية الباطل عن كثب، ويحدّد جذور

الظلم بصورة صحيحة.

٧. انتظار بلون الدم

بديهيّ أنّ الزائر حينما ينوح على مثل هـذا المصـاب الجلـل ويجلس للعزاء، ويصل إلى مرحلة يعتبر نفسه المعزّى فيها، فـإنّ أعظم أمنياته ستكون الانتقام ممّن ارتكب جريمة بهـذه البشـاعة بحقّ المجتمع البشريّ. ولعلّ من النقاط الظريفة والعميقة لزيـارة عاشـوراء التأكيـد لنقطـة ملحوظـة مفادهـا أنّ الثـأر لـدم سـيّد الشهداءعليه السلام لن يكون إلا علـى يـد الإمـام المهـديّ «عجّـل الله تعالى فرجه الشريف».

وإلى جانب تبيينها لهذه النقطـة تعمـد زيـارة عاشـوراء إلـى بلورة حالة من الانتظار الأحمر لـدى الزائـر، حتّـى يظـلّ يـردّد مسألته من الله تبارك وتعالى بأن يكون في ركـاب المنتَظـر عنـد الأخذ بثأر سيّد الشهداءعليه السلام.

ويمكـن أن يكـون الانتظـار أخضـر أو أحمـر، لكـنّ زيـارة عاشوراء تغرس في ذات الزائر نبتة انتظـار بلـون الـدم، وتـذكّر الشيعيّ إمّا أن تضمّخ بدمائك وتستشهد، أو أن تشتعل شوقاً فـي طلب الشهادة. فالشيعيّ إمّا أن يكون شهيداً أو عاشـقاً للشـهادة، وإلا فهو ليس بشيعيّ. إنّ تبلـور مثـل هـذا العشـق والاسـتعداد للانتقام في إطار الانتظار يحوّل الزائر إلى إنسان مقاتـل؛ مقاتـل يقتحم ساحة الوغى بكلّ وجوده وجوارحه ليقابـل أئمّـة الكفـر والنفـاق، ويقـف وجهـاً لوجـه أمـام مـن أوجـد تلـك المأسـاة

والمصيبة، وأراق دم الحسين عليه السلام على الأرض.

٨. مع الحسين عليه السلام نحو الخلود

الأمنية الأخرى للزائر مواكبة الوجود المقدّس والنورانيّ لسيّد الشهداء في الدنيا والآخرة، أن يكون معه في الدنيا، أي أن تكون حياته ومماته حسينيّاً. أمّا مرافقته في الآخرة فتعني بلوغ المقام المحمود والحصول على وسام شفاعة ذلك الوجود المبارك.

الخيمة الثالثة

خطوات في روضة الشقائق

تنويه

الفصل الثالث سيكون محطّتنا لتبيين وتفسير مقاطع مهمّة من زيارة عاشوراء، وفيها نحاول قطع خطوات بسلوك عرفاني في سهل غطّته شقائق النعمان الحمراء. وكما قلنا آنفاً في الفصل الأوّل فإنّ من المناسب أن نناقش وندرس مقاطع هذه الزيارة من منظار كونها مؤسّسة ثقافية مهمّة، ونحصل على خطّة عمل وصولاً إلى حياة حسينية. وصحيح أنّها خطوة أولى على الطريق، ولا يمكننا ببضاعتنا المزجاة هذه سوى أن نوضّح ـ وعلى نحو الاختصار ـ النزر اليسير من مفاهيم هذه المؤسّسة المقدّسة، لكنّ الأمل يحدونا على أن يكون عملنا هذا نقطة انطلاقة نحو الأمام. إذاً نستعين بالله تعالى ونبذل جهدنا في هذه المجال ونؤجّل مواصلة المسير إلى زمن غير مسمّى، سائلين المولى تبارك وتعالى التوفيق لبحث مقاطع أخرى من هذه الزيارة العظيمة في وقت آخر.

السلام المتكرّر في زيارة عاشوراء

ينصبّ البحث في المقطع الأوّل لزيارة عاشوراء الشريفة، على محور السلام على سيّد الشهداءعليه السلام وأصحابه الأوفياءعليهم السلام.

التحيّة

كما هو معروف منذ القدم يمتاز كلّ قوم وقبيلة بأسلوب وسلوك خاصّ بهم عند لقاء بعضهم الآخر وكذلك طريقة احترامهم لبعضهم. فمثلاً عمدت مجموعة من الناس إلى الصفير كوسيلة لتقديم الاحترام، فيما راحت أخرى تضع الأيادي على الأفواه. ومجموعة ثالثة فضّلت رفع أياديها عند اللقاء، واكتفت الرابعة بوضع أياديها على الصدر احتراماً للطرف المقابل. ومثل هذا التصرّف يطلق عليه في اللغة العربية «التحية». وبذلك تعني التحيّة السلوك أو القول المعتمد عند اللقاء بما يعبّر عن الاحترام والتقدير وإبراز اللطف والمودّة للطرف المقابل.

والإسلام ـ شأنه شأن كافّة الأديان الإلهيّة التي اهتمّ قسم من تعليماتها بتنظيم السلوك الاجتماعي ـ أقرّ لأتباعه تحيّة خاصّة بهم. والتحيّة الخاصّة بالمسلمين هي كلمة «سلام» المباركة. فحينما يلقى المسلم أخاه المسلم يبادره بهذه اللفظة تعبيراً عن احترامه وتقديره له. وفي هذا الباب وردتنا تعليمات مختلفة من قبل هداتنا الميامين بشأن التحيّة من قبيل «إفشاء السلام»،

و«السلام بصوت مسموع» و«مبادرة الأطفال بالسلام».

والقرآن الكريم يدعو المسلمين في وصيّة أخلاقية رائعة عبر الآية الشريفة ٨٦ من سورة النساء المباركة إلى التحايي فيقول: ﴿**وإذا حُيّيتُم بتحيَّة فحيّوا بأحسنَ منها أو رُدّوها ..**﴾. وانطلاقاً من مفهوم هذه الآية، أوصى علماؤنا بأن نردّ على من يسلّم علينا بالقول: «سلام عليكم» أو «عليكم السلام»، وإن قال: «سلام عليكم» فقولوا في الجواب: «عليكم السلام ورحمة الله»، بمعنى أن يكون ردّ التحيّة بصيغة أفضل وأكمل. والحكمة في مثل هذه الوصيّة تكمن في الحثّ على استباق فعل الخير وإظهار المحبّة للآخرين.

وقد تضمّنت أحاديث النبيّ الأكرم والأئمّة المعصومين «عليهم الصلاة والسلام» بشأن هذه السنّة الإسلامية توصيات كثيرة وتأكيدات عجيبة، حتّى أنّه ورد الوجوب الشرعي في ردّ تحيّة السلام، بل ويجب على المصلّي أن يردّ على السلام وفقاً لصيغه المختلفة، كما ورد في الرسائل العملية.

إنّ هذه التأكيدات والتوصيات تدلّ على أنّ الدين الإسلاميّ المبين ينشد تعزيز العلاقات الوديّة وخلق حالة من التآلف والاتحاد بين أبناء الأمّة الإسلامية.

معنى السلام

الآن وبعد أن عرفنا أنّ كلمة «السلام» هي التحيّة الشائعة بين

المسلمين، من المناسب جدّاً أن نسأل عمّا تضمره هـذه الكلمـة من معنى، وما هو المفهوم المكنون فيها؟

و«السلام» واحد من أسماء الله تبارك وتعالى، إذ ورد في الآية ٢٣ من سورة الحشر المباركة: **﴿هوَ الله الذى لا إلهَ إلّا هوَ الملِـكُ القدُّوسُ السلامُ المؤمِنُ المهيمِنُ ..﴾**. لهذا ذهـب بعـض العلمـاء إلى أنّ السلام بمعنى التحيّة يحمل فـي طيّاتـه الرحمـة والبركـة لكلا الجانبين، ذلك أنّ وجود الحقّ تبارك وتعالى وصفاته مدعاة إلى نزول البركة على العباد. لكنّ هذا الكـلام لا يبـدو صـحيحاً، خاصّة وأنّ المرء لا يقصد من سلامه ذِكر الله تعالى، بل إنّ مراده من السلام هو احترام الطرف المقابـل والتعبيـر لـه عـن محبّتـه وتقديره له.

وبعـض آخـر رأى أنّ «السـلام» مصـدر متفـرّع مـن بـاب «التفعيل»[١] وهو بمعنى «تسـليم»؛ أي أنّ الشـخص حينمـا ينطـق بهذه الكلمة كأنّه يقـول للطـرف المقابـل: (سـلّمت أمـري لـك، ومستعدّ لأكون طوع أمرك).

والسلام بمعنى «سِلم»، أي المحبّة والمسالمة، فحينمـا يسـلّم المرء على آخر يُظهر له في الواقع محبّته ومودّته، ويـوحي إليـه أن ليس لديه خصومة ولا نزاع معه. ولهـذا نجـد أن المسـتاء أو المغتاظ من آخر لا يسلّم عليه. هكذا تقول المجموعة الثالثة.

ولكن قسماً رابعاً اعتبر السلام أنّـه السـلامة غيـر المشـروطة

١ـ باب تفعيل واحد من أبواب الثلاثي المزيد، وله أيضاً مصدر فرعي على وزن «فَعال».

وغير المقيّدة، وهي تشمل السلامة الروحية والجسمية. علماً أنّ السلامة لها مراتب ودرجات مختلفة، فلربما تكون بمثابة النجاة من الموت بالنسبة إلى شخص، وبمثابة التخلّص من صداع خفيف بالنسبة إلى آخر. وقد تعتبر النجاة من مرض الحسد الكبير سلامة، بينما السلامة لآخر يتحقّق مصداقها في تخطّي مرحلة مرض نفسيّ قصيرة وبلوغ مرحلة نشاط عرفانيّ.

ولعلّ المعنى الأخير أدقّ من المعاني الأخرى للسلامة وأقربها إلى الواقع. فعندما يحيّي المسلم أخاه فإنّه يتمنّى له سلامة كهذه، خاصّة وأنّ لفظة «عليك» التي غالباً ما تلي لفظة السلام تدلّ بوضوح على هذا المعنى؛ ذلك أنّ «على» في كلمة «عليك» حرف يأتي في العربية بمعنى استعلاء وإحاطة بالشيء. وحينما نسلّم على شخص آخر نقول: «سلام عليك» نفهمه بأنّنا نتمنّى لك السلامة في كافّة جوانب وجودك.

معنى السلام على الإمام الحسين عليه السلام

والآن لنرى ما معنى السلام على الوجود المقدّس لأهل البيت عليهم السلام، وخاصّة السلام على الإمام الحسين عليه السلام في زيارة عاشوراء؟

ويبدو أنّ السلام على الإمام الحسين عليه السلام ينضوي إلى المفاهيم الثلاثة ـ عدا الأوّل ـ التي تطرّقنا إليها في المقطع السابق، أي عندما يضع الزائر يده على صدره ويقول بمنتهى

الاحترام والأدب: «السلام عليك يا أبا عبد الله»، إنّما يريد أن يقول لسيّد الشهداء عليه السلام إنّني محبّ لك ومطيع لأوامرك، وكذلك أتمنّى لك الصحّة والسلامة المطلقة وغير المشروطة. وهكذا سلام يكون معبّراً عن المحبّة والوفاء ومشعوفاً بإعلان التسليم والطاعة المحضة.

الرتبة المعنوية تحدّد معنى السلام

إنّ المعاني الثلاثة أعلاه لا تتجسّد في سلام كلّ زائر، وإنّما سلام كلّ زائر يمثّل واحداً من المفاهيم الثلاثة استناداً إلى مرتبته الإيمانية. وربما يكون سلام الزائر بمستوى إعلان المحبّة وذلك وفقاً لحالته المعنوية ودرجته الإيمانية. ومثل هذا السلام هو من شأن ذوي المراتب الابتدائية من الإيمان والتشيّع. ولكن سلام شخص آخر قد يكون بمعنى إعلان الوفاء ومرافقة سيّد الشهداء عليه السلام، بينما سلام الشخص الثالث الذي بلغ مراتب عالية من الإيمان يكون بمعنى التسليم الكامل والطاعة المطلقة. إذاً فسلام عوامّ الشيعة له مفهومه، ولسلام الخواصّ من الشيعة مفهومه هو الآخر.

السلام استئذان بدخول رياض الزيارة

يعدّ السلام نوعاً من التمهيد لإقامة علاقة حميمة وإيجاد حالة من الأنس مع الإمام عليه السلام. و«السلام» في الحقيقة نوع من الاستئذان؛ استئذان بالدخول في أجواء حميمة ومليئة بالمحبّة.

وفي زيارة عاشوراء يعدّ السلام وسيلة للشروع في الحديث مع الإمام الحسينعليه السلام ومناجاته. وبمقتضى أهميّة نقطة البداية في كلّ عمل ـ لاسيما الحديث مع الإمام المعصومعليه السلام ـ لابدّ من التطرّق إلى نقطتين أساسيتين بشأن السلام في هذه الزيارة:

النقطة الأولى: أدب المثول

ينبغي للزائر أن يستشعر حين السلام، وقوفه ومثوله عند أعتاب الإمامعليه السلام، وإلا فترديد عبارات وألفاظ الزيارة بعيداً عن هذا الإحساس لن يكون مغنماً. ولعلّ القارئ يتذكّر ما قلناه في إطار تفسير لفظة الزيارة: لا نستطيع الزعم أنّنا زرنا شخصاً ما. إلا أن نكون قد حضرنا عنده وقابلناه. وبالنتيجة متى ما شعر الزائر بذلك الحضور والتوجّه القلبيّ ورأى نفسه في محضر الإمامعليه السلام يكون قد أُذن له بدخول أجواء الزيارة وفتح باب الحديث الوديّ مع الإمامعليه السلام.

بعبارة أدّق تشبه الزيارة الصلاة من هذه الزاوية، فرغم أنّ قراءة الحمد والسورة والقيام بالحركات الظاهرية للصلاة تسقط التكليف عن كاهل الإنسان، بيد أنّ مثل هذه الصلاة ليست تلك الصلاة التي هي معراج المؤمن وتزيح حُجُب الغفلة والمعاصي عن قلبه وتقرّبه إلى الله تعالى. فهذه الصلاة كجسد بلا روح، وهذه الزيارة أيضاً كجسم بلا روح، إذ لم تدبّ فيها الروح المعنوية، وبالتالي فهي لا تحمل للزائر فائدة تُذكر. والآن يبرز لنا السؤال التالي: كيف يمكن لنا أن نتوصّل إلى مثل هذا

الإحساس؟ وكيف يمكننا أن نعرف أنّنا في محضر الإمامعليه السلام؟

وفي معرض الردّ على هذا السؤال، يجب القول: إنّ الاستحضار حالة قلبية قوامها العلم والمعرفة. وبلوغ مثل هذا الحضور يحصل في ظلّ المعرفة والاطّلاع والإيمان. وعلى الزائر أن يرتقي سلّم المراتب من معرفة الإمامعليه السلام حتى يستشعر في داخله أثناء الزيارة أنّه في محضر الإمامعليه السلام.

إنّ الأئمّة المعصومين حاضرون في كلّ مكان، بل ويشمل وجودهم كافّة نواحي نظام الخلقة؛ لا يخفى عليهم أي حادث في العالم، بل كلّ أعمال وسلوك الناس بمرأى من الإمام المعصومعليه السلام؛ يقول عزّ من قائل في كتابه المبين في الآية ١٠٥ من سورة التوبة المباركة:

﴿وقُل اعمَلوا فَسيَرى الله عمَلكُم ورسُولُهُ والمُؤمِنونَ وستُردّونَ إلى عالِمِ الغَيبِ والشّهادةِ فيُنبِّـئُكُم بما كُنتُم تعمَلونَ﴾.

وقد أخرجت الروايات ـ وهي كنوز معرفة الشيعة التي تفسّر المتشابه من القرآن الكريم ـ لفظة «المؤمن» من المعنى العام لها وحصرتها بالأئمّة الأطهارعليهم السلام.[1] وحتّى لو لم ترد مثل هذه الرواية، فإن مَن له معرفة بآداب وثقافة القرآن الكريم يدرك أنّ لفظة «**والمؤمنون**» الواردة في الآية الشريفة إنّما تعني مَن بلغ

١ـ ينقل الشيخ الطوسيّ في تفسيره «التبيان» في ذيل هذه الآية المباركة، هذه الرواية: «إنّ الأعمال تُعرض على النبيّصلى الله عليه وآله في كلّ اثنين وخميس فيعلمها، وكذلك تُعرض على الأئمّةعليهم السلام فيعرفونها، وهم المعنيون بقوله: ﴿.. **والمؤمنون** ..﴾.

إيمانه ذروة الكمال.

إنّ هذه الآية الشريفة تصوّر الدنيا كمشهد تمثيليّ يقوم الأفراد بأدوارهم فيها والله تعالى ورسوله والأئمّة المعصومون «عليهم الصلاة والسلام» هم المشاهدون لهذه التمثيلية الكبيرة والطويلة. ولفهم معنى الحضور الشامل للإمام المعصوم عليه السلام - وفضلاً عن الآية الشريفة المذكورة - هناك عبارة كُتبت في أحد أروقة حرم الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، تقول:

«أشهَدُ أنّكَ تَشهدُ مقامي وتَسمَعُ كلامي وتَرُدُّ سلامي وأنّكَ حيٌّ عِندَ الله مَرزوقٌ»[1].

ويدلي الإنسان بشهادته في موضوع ما حينما يكون على اطّلاع تامّ بالأمر؛ رآه بأمّ عينيه، وتيقّنه بقلبه ووثق منه تماماً. إذاً فمَن قرأ هذه العبارة كان على يقين من أنّ الإمام المعصوم عليه السلام حاضر في كلّ مكان ومطّلع على سلوكنا.

وهكذا كتب الإمام المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» مخاطباً الشيخ المفيد قدس سره قائلاً:

«.. إنّا نُحيطُ عِلماً بأنبائكُم ولا يَعزُبُ عنّا شيءٌ من أخبارِكُم ..»[2].

وعلى هذا ينبغي للزائر أن يلتفت أوّلاً إلى أنّه لا فرق في كون الإمام المعصوم عليه السلام حيّاً أو ميتاً، وأنّ علمه بعوالم الوجود

١- إشارة إلى الآية الشريفة: **﴿وَلا تَحسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سبيلِ اللهِ أمواتاً بَل أحياءٌ عِندَ ربِّهم يُرزَقونَ﴾**. آل عمران: ١٦٩

٢- *بحار الأنوار*، ج ٥٣، ص ١٧٤.

غير مشترط ببعدهم الجسمانيّ. وعلينا تلقين أنفسنا أنّنا نقف أمام مَن هو مطّلع على وضعنا وسلوكنا. ليس مجرّد اطّلاع عن سلوكنا الظاهريّ، وإنّما ملمّ أيضاً بخواطرنا وحالاتنا الروحية أيضاً.

ولو أنّ امرءاً ألقى السلام على الإمام الحسين عليه السلام وهو ليس بهذا الحال ولا يمتلك ذلك الحضور القلبيّ، لكان كمن لم يلج أجواء وروضة الزيارة مطلقاً.

ما ألذّ وأحلى أن يتمكّن الإنسان من لمس هذا المثول، ويتزلّف إلى الإمام عليه السلام إلى الحدّ الذي يصل إليه عن علم ومعرفة ويتذوّق حلاوة وقوفه بين يديه.

إنّ أولئك العِظام يشرفون على أوضاع وأحوال أتباعهم، ومثلما يفرحون لأعمالهم الصالحة يتألّمون لأعمالهم الطالحة. لقد زار بعض أهل المعرفة الإمام المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف»، فرأوه يبكي حال شيعته متألّماً ممّا يرتكبونه من معاصٍ وذنوب.

وفي الصلاة ـ كما في الزيارة ـ ينبغي التوصّل إلى مثل هذه المعرفة بالله جلّ وعلا، ذلك أنّ الصلاة في الحقيقة هي زيارة ولقاء الله تعالى. وورد في رواية أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان مع عدد من أصحابه وإذا به تغيّر لونه فجأة، فقلق أصحابه وسألوه مندهشين: أبا الحسن، ما الذي حصل؟ فقال عليه السلام: ألا تعلمون أنّه حان موعد لقاء الله؟ كيف تتصوّر أن يكون حال

أمير المؤمنين في ذلك الزمان؟ لقد وقف للصلاة على تلك الحال. وكلّما نقل عن صلاة وعبادة الإمام عليّ وأولاده عليهم السلام كان بنفس هذ الصيغة.

ولو بلغ الإنسان هذه المرحلة من التوجّه الروحي في الصلاة والزيارة والدعاء، واستشعر المثول بين يدي الله تعالى والأئمّة المعصومين عليهم السلام، لتوفّرت له مقدّمات العروج المعنويّ. وعلى الزائر أن يفكّر أثناء دخوله إلى روضة الزيارة؛ إلامَ يتحدّث؟ وإلى لقاء مَن يتوجّه؟ وبين يدي مَن يقف؟ كي لا يصدر عنه غفلة ممّا يعدّ إساءة أو إهانة، وكي لا تجري عبارات الزيارة على لسانه وقلبه منشغل في مكان آخر، كي لا تتحرّك شفتاه بالزيارة وذهنه شارد إلى جهة أخرى.

وفيما يتعلّق بالصلاة هناك رواية أخرى تشير إلى أنّ العبد إذا قام إلى الصلاة وكبّر نظر الله تبارك وتعالى إلى قلبه ليرى إن كان يعتقد قلباً بما يجري على لسانه، أم لا. ذلك أنّ الله تبارك وتعالى يرى الأهواء النفسية والنزعات الشهوانية لدى العبد أهمّ من الله (والعياذ بالله)، فيخاطبه: أتستهزأ بي؟ ألا تخجل من نفسك وأنت تكذب عليّ بهذا الشكل؟ أليست عبارة «الله أكبر» تعني أنّك تجري على لسانك أنّه جلّ وعلا أكبر من كلّ شيء، لكنّ كافّة المخلوقات الصغيرة والوضيعة في تفكيرك أكبر منّي؟

وهكذا الحال في زيارة الأئمّة المعصومين عليهم السلام. حينما يقف الإنسان أمامهم ويسلّم عليهم فإنّهم يعرفون ما في مكنونه. يا له

من خزي عظيم أن يخاطب المرء سيّد الشهداء عليه السلام بالقول «**السلام عليك يا أبا عبد الله**» في حين هو يسلّم على آخرين. فجسمه في مقابل مرقده الطاهر وحرمه النوراني لكنّه يواجه آخرين. ولسانه يتحدّث إليه، بيد أنّ قلبه يتكلّم مع آخرين. ألا يخاطب الإمام عليه السلام مثل هذا الشخص بالقول: لماذا تكذب علينا؟

وعلى قلبه الزائر أن يكون ماثلاً في محضر الإمام عليه السلام، كي يصل السلام إليه. ولابدّ من مراعاة آداب المثول حتى يكون لهذا السلام جواب. ولو استمرّ هذا الحضور والتوجّه لسمع الزائر بكلّ وجوده في وقت ما تلبية الإمام عليه السلام له.

النقطة الثانية: تطابق القول والفعل

النطقة الأخرى التي ينبغي الاهتمام بها في السلام حصول تطابق بين سلام الزائر وسلوكه، فماذا نعلن نحن عندما نسلّم؟ نريد على الأقل طمأنة الطرف المقابل بأنّنا لا نتعدّى على حقوقه ولا نشكّل خطراً عليه، ونريد إبلاغه أنّه بمأمن من سوء قولنا وفعلنا.

وفي معرض السلام على الوجود المقدّس للمعصومين عليهم السلام، وخاصّة الإمام الحسين عليه السلام، علينا أن نصل بالفعل إلى هذا المقام ونعلن ونقول: سيّدي ومولاي! قرّ عيناً بي، لن أصدّع قلبك أذى وسأحرص على أن لا يصدر عنّي ما يسخطك وما لا يُرضيك.

وأعلم أنّك تتألّم عندما تراني متهاوناً، وتتأوّه إن رأيتني شيعيّاً متكاسلاً، وأعلم أنّ قلبك منكسر لما يتّصف به أعداؤك من

تكالب واندفاع جادّ في محاربة دين الله تعالى فيما أحبّاؤك متكاسلون ومتخلّفون، رغم ما يتمتّعون به من مواهب إلهية ولطف إلهيّ.[١] إذاً ينبغي لي أن أتغلّب على التكاسل والتهاون والتخلّف بكلّ أنواعه. ألم يكفِ ما فعله أعداؤك بك من خيانة وجريمة وما أضمره من حقد دفين حتّى أزيد الطين بلة وأكون سبباً في إثارة قلقك وهمّك؟

وعليّ أن أكون جندياً وفياً، وعنصراً متفانياً، وعضواً مؤثّراً في جبهتك، وأتسلّح بالإيمان والمعرفة والتقوى كي يمكنك أن تعتمد عليّ وعلى قدراتي؛ لا أن أثير المتاعب لك أو أن أسبّب لك الإزعاج بتصرّفاتي.

ولو بلغنا هذه المرتبة أثناء زيارة عاشوراء، لبات سلامنا حقيقيّاً ولم نكذب، وحينئذ يمكننا الوقوف في محضر سيّد الشهداء عليه السلام وهامتنا مرفوعة ونردّد: «**السلام عليك يا أبا عبد الله**».

أساس العبودية

إنّنا نخاطب الإمام الحسين عليه السلام في العبارة الأولى من زيارة عاشوراء، بكنيته «أبي عبد الله».

وكما هو معروف لدى العرب منذ القدم أنّ لكلّ شخص كنية فضلاً عن اسمه ولقبه، والكنية هي لفظة تبدأ عادة بكلمتي «أب»

١- يروى عن المعصوم عليه السلام، قوله: «عجباً من جدّ هؤلاء في باطلهم وفشلِكُم عن حقِكُم». وفي موضع آخر ورد «كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً».

أو «أم»، وهي مؤشر على نوع من الاحترام. وأئمّتنا عليهم السلام كلّ منهم له كنيته، وكنية الإمام الحسين عليه السلام هي «أبو عبد الله». علماً أنّ هذه الكنية يشترك فيها معه حفيده الإمام الصادق عليه السلام.

وقيل: إنّ الإمام الحسين عليه السلام حينما ولد أخذه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في حضنه وهو يبكي ويقول: «عزيز عليّ يا أبا عبد الله ..»، ثم راح يذكر مصائبه في كربلاء. وكما أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله لم ينطق يوماً عن هوى أو ميول دنيوية،[1] وكلّ كلامه هو وحي إلهي، فإنّ هذه الكنية جاءت مثبّتة من قبل الله تبارك وتعالى للإمام الحسين عليه السلام.

إنّ كنية «أبي عبد الله» تطلق على مَن له ابن باسم عبد الله، أو مَن سيكون له ابن في المستقبل يسمّيه عبد الله. لكنّ الأمر بالنسبة إلى الإمام الحسين عليه السلام لم يكن على أيّ من النحوين المذكورين، فحينما كنّاه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكن له بطبيعة الحال ولد اسمه عبد الله، ولا حينما رُزق بالأبناء سمّى واحداً منهم عبد الله. ومن هنا يتبادر إلى الذهن هذا السؤال: إذاً فما المعنى المكنون وراء أن يُكنّى الإمام الحسين عليه السلام بأبي عبد الله؟ وما هي الحقيقة التي تنضوي إليها هذه الكنية؟

والزاوية الأخرى التي كان العرب يهتمّون بها أثناء اختيارهم للكنية هي أنّ صاحب الكنية يمتلك ذاتياً ومنذ الولادة فضيلة تكشف عنها الكنية المختارة. فمثلاً تشير كنية «أبي المكارم» إلى

١- ﴿ما ينطِقُ عن الهوى * إن هو إلا وحيٌ يُوحى﴾، النجم: ٣ و٤.

تحلّي صاحبها بالكرم المتعدّد في صوره. إنّ كنية الإمام الحسين عليه السلام هي من هذا النوع من الكنى؛ فأبو عبد الله يعني أباً للعبد وأساساً للعبودية.

وتلك العبودية التي تجلّت صورتها في الوجود النورانيّ للإمام الحسين عليه السلام، ولم تتجلّ في غيره لا من قبله ولا من بعده. فلو لم يكن استشهاد ذلك الوجود المقدّس وإراقة دمه الطاهر، لما عبد الله أحد على الأرض، ولما ترسّخت أسس العبودية. إنّ الحسين بن علي عليهما السلام أعاد بنمطية استشهاده المظلومة نبض الحياة من جديد لكافّة عباد الله تعالى ولهذا السبب كُنّي بأبي عبد الله.

ابن الرسول

في السلام الثاني من الزيارة المباركة، ورد «**السلام عليك يابن رسول الله**». وهنا يخاطب الزائر الإمام الحسين عليه السلام بكونه ابن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، بالرغم من كون الإمام الحسين عليه السلام ابن بنت الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، إلا أنّ الخطاب جاء بعبارة «يا ابن رسول الله». وهنا فيه إلماح إلى العلاقة الوثيقة والحميمة والقوية بينه وبين الرسول الخاتم. ولعلّه صلى الله عليه وآله بيّن في حديثه الشريف والمعروف «**حسينٌ منّي وأنا من حسينٍ**»[١]، كنه تلك العلاقة الوثيقة وغير المنفكّة.

١- *بحار الأنوار*، ج ٤٣، ص ٢٦١.

ربما أمكن القول: إنّ هذه العبارة بحدّ ذاتها دليل على كفر ونفاق مَن تلبّسوا بلباس الإسلام واصطفّوا في الجهة المقابلة للإمام الحسينعليه السلام يوم عاشوراء، إنّهم كانوا يعلمون تماماً أنّ الإمام الحسينعليه السلام ابن النبيّصلى الله عليه وآله الذي كان يحبّه كنفسه، ومع ذلك أقدموا على قتله بأبشع صورة.

ابن سيّد الأوصياء

«**السلامُ عليكَ يا ابنَ أميرِ المؤمنينَ وابنَ سيّدِ الوصيّينَ**»، وهذا هو السلام الثالث في زيارة عاشوراء. و«**أمير المؤمنين**» لقب خاصّ للإمام عليّعليه السلام، ولا يجوز إطلاقه على أيّ إنسان غير هذا الوجود المقدّس. ثمّ «**سيّد الوصيّين**» الذي يعكس مكانة عليّ ابن أبي طالبعليه السلام إزاء باقي الأئمّةعليهم السلام، أي أبنائه.

و«**الوصي**»: لفظة تطلق على من يتولى بعد ممات شخص ما كافة صلاحيات وشؤون المتوفّى. وبطبيعة الحال يتمّ اختيار الوصيّ من بين أقرب الأشخاص للمتوفّى. إنّ الأئمّة المعصومينعليهم السلام كلّهم أوصياء للنبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله، ولذا فهم ورثوا عنه كلّ فضائله سوى منصب الوحي. ولكن الإمام عليّاًعليه السلام هو السيّد بين أولئك الأوصياءعليهم السلام.

خلاصة القول: إنّه تمّ تعريف الإمام الحسينعليه السلام ومخاطبته في هذا السلام من زيارة عاشوراء بواسطة أبيه الذي هو أمير المؤمنين وسيّد الأوصياء.

ابن سيّدة نساء العالمين

«**السلامُ عليكَ يا ابنَ فاطمةَ سيّدةِ نساءِ العالَمينَ**»: يتحوّل الزائر في هذا المقطع من زيارة عاشوراء إلى أمّ الإمام الحسين عليه السلام ويركّز على أنّه ابن تلك السيّدة العظيمة، فاطمة الزهراء عليها السلام.

وفاطمة الزهراء عليها السلام أمّ الخلقة وأفضل نساء عالم الوجود، وحسب قول النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فإنّه لم يدرك أحد منزلتها وحقيقة وجودها الشريف سوى رسول الله وأمير المؤمنين «عليهما أفضل الصلاة والسلام». وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ سيّدة أخرى لُقّبت أيضاً بأنّها أفضل نساء الخلقة وهي سيّدتنا مريم ابنة عمران عليها السلام:

﴿وإذ قالتِ الملائكةُ يا مَريَمُ إنَّ اللهَ اصطَفاكِ وطهَّركِ واصطَفاكِ على نساءِ العالمينَ﴾.[1]

بيد أن الروايات التي في متناول أيدينا تفيد أنّ اصطفاء سيّدتنا مريم عليها السلام على نساء العالمين إنّما اختصّ بفترة حياتها وزمانها، لكنّ سيّدتنا فاطمة عليها السلام هي سيّدة لنساء العالم في كافّة الأزمان وكلّ الأمكنة.

ثارالله

بعد ترديد السلام بصيغه الأربع التي يخاطب الزائر بها الإمام الحسين عليه السلام بالعبودية وبنوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وبنوّة أمير

١- آل عمران: ٤٢.

المؤمنين عليه السلام ومن ثم بنوّة فاطمة الزهراء عليها السلام على التوالي، يتوجّه إليه بالخطاب المباشر قائلاً: «**السلامُ عليكَ يا ثارَ الله وابنَ ثارِهِ**»، أي دم الله وابن دم الله.

و«المعَرّف بالإضافة» اصطلاح يطلق على مثل هذا التركيب اللغوي «ثار الله» في اللغة العربية، فكلمة «ثار» مضاف ولفظ الجلالة «الله» مضاف إليه. غير أن لتركيب الإضافة هذا في اللغة العربية معانيَ مختلفة، منها إضفاء الفخر والشرف على المضاف. وفي مثل هذا التركيب الذي يسمى بإضافة التشريف يكتسب المضاف الشرف والفخر من المضاف إليه. فمثلاً يعتبر التركيب «بيت الله» إضافة تشريف، ذلك أنّ الله تبارك وتعالى ليس لديه في الواقع بيت لأنّه ليس بجسم حتّى يضمّه مكان ما، وإنّما نُفهم الطرف المقابل أنّ البيت الكائن في أرض الحجاز ومدينة مكّة المكرّمة ازدان بالشرف والرفعة لانتسابه إلى الله جلّ وعلا، بعد أن رُفعت قواعده بأمر منه تعالى، وطاف حوله أنبياؤه وأدّوا شعائر العبادة بجانبه.

إنّ الإضافة في تركيبة «ثار الله» هي إضافة تشريف، فهو دم مقدّس، وهذا الشرف والقدسية متأتّية من العلاقة التي تربط صاحب هذا الدم بالله تعالى. إنّ لدم سيّد الشهداء عليه السلام أهمّية وعظمة وحرمة خاصّة لدى ربّ العزة، خاصّة وأنّ دم أبي الأئمّة عليه السلام دم أريق على الأرض في ذروة الإخلاص لله تعالى. بل دبّت الحياة في دين الله بواسطة هذا الدم المقدّس، وببركته

جرت المعنويات في شريان العالم. إنّ دم الحسينعليه السلام ليجري في عروق الإسلام إلى يوم القيامة، ولقد ظلّ الإسلام نابضاً بالحياة مع اسم الحسينعليه السلام ومجالس عزائه.

على أنّ هناك معانيَ أخرى قيلت في شرح عبارة «ثار الله» منها أنّه الدم الذي سينتقم له الله تعالى. ومنشأ هذا القول يعود إلى سُنّة اعتمدتها القبائل العربية بشأن الانتقام لقتيلها. فلو أنّ شخصاً أقدم على قتل آخر من قبيلة لتكفّلت هذه القبيلة بالانتقام لدمه وتظلّ تحتفظ لنفسها بحقّ الانتقام إلى حين الاقتصاص من القاتل. وكما هو معروف فإنّ هذه السُنّة اعتُمِدت بعد ظهور الإسلام على شيء من التعديلات، ووردت في القرآن الكريم تحت عنوان «حقّ القصاص».[1] والانتقام لأشخاص عاديّين يكون عادة ممّن في شأنهم ومنزلتهم، فإنّ دم سيّد الشهداءعليه السلام من القدر والمنزلة بحيث إنّ الطالب بثأره هي الذات الإلهية المقدّسة. وحقّ الطالب بهذا الدم محفوظ إلى الوقت الذي يأخذه بواسطة الإمام المهديّ المنتظر «عجّل الله تعالى فرجه الشريف».

وليس الحسينعليه السلام وحده من عرف بثار الله أو دم الله، وإنّما والده أمير المؤمنينعليه السلام أيضاً. ولدى ظهور إمام الزمان «عجّل الله تعالى فرجه الشريف»، يتوجّه قبل كلّ شيء إلى قادة الظلم والجور الذين حلّت عليهم اللعنة في زيارة عاشوراء، وينتقم بعد

١- ﴿ولكُم فى القَصاصِ حياةٌ يا أولى الألبابِ﴾، البقرة: ١٧٩.

قرون من الانتظار لظلامة ومقتل أمير المؤمنين وفاطمة الزهراء وأبنائهما الهداة الميامين عليهم سلام الله أجمعين.

شهيد ليس كسائر الشهداء

وبالاستمرار في قراءة عبارات الزيارة الشريفة نصل إلى عبارة «**والوترَ الموتور**» التي تتحدّث عن انفراد الإمام الحسين عليه السلام بهذا النوع من الشهادة دون غيره، فهو أحد أنوار طاهرة خُلق العالَم لأجلهم. إنّ كافّة الفضائل المعروفة لسائر الأئمّة عليهم السلام متوفّرة في وجود الإمام الحسين عليه السلام؛ سواء كان ذلك في مقام الباطن حيث هم الواسطة لخلقة الكون والاتّصال بمصدر الفيض الإلهيّ، أم في مقام الظاهر حيث نهضوا بمنصب الإمامة وقيادة الناس.

أضف إلى ذلك أفرد الله تبارك وتعالى للإمام الحسين عليه السلام اهتماماً خاصّاً؛ فهو عليه السلام أبو أئمّة الشيعة، لاسيّما ابنه الإمام المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» الذي ظلّ الجميع ينتظرونه على مدى التاريخ. ومن هذا المنطلق يتميّز الإمام الحسين عليه السلام بأفضليّة خاصّة مقارنة بسائر الأئمّة من ولده عليهم السلام، وحتّى أخيه الإمام الحسن عليه السلام. فالأئمّة من الرابع إلى الثاني عشر هم من ولد الإمام الحسين وليسوا من ولد الإمام الحسن عليهما السلام.

والنقطة الأخرى هي أنّ الحرم الحسينيّ الطاهر يعدّ واحداً من أقدس بقاع الأرض، فدعاء الزائر في الحائر الحسينيّ مستجاب، وقد ورد أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا يقولون عند

ظهور الأزمات والمشاكل: «أرسلوا إلى حرم سيّد الشهداء من يدعو هناك». ويمكن للمسافر أن يؤدّي صلاته بالتمام تحت قبّة المرقد الطاهر، وكأنّه لا أحد غريباً في كربلاء، ليس هذا فحسب وإنّما كأنّ حرمه عليه السلام وطن لكافّة الشيعة، ولهذا لا حاجة إلى قصر الصلاة. ولا نجانب الصواب إنّ قلنا: إن الزائر حينما يصل إلى الإمام الحسين عليه السلام يكون في الحقيقة قد حلّ في بيته لا أنّه ارتحل عن بيته وقصد كربلاء المقدّسة.

إنّ أكل التراب حرام ولو بمقدار ذرّة، ولكنّ تربة قبره المبارك يمكن تناولها بنيّة الشفاء. وإيماناً بهذا الأمر تجد كثيراً من الشيعة يعمدون إلى فتح ريق مواليدهم بتربة سيّد الشهداء عليه السلام حيث يضعون ذرّة من تلك التربة الطاهرة في فم الوليد كي تمتزج روحه منذ اللحظات الأولى بحبّ الحسين عليه السلام.

وعند موافاة الأجل وقبل الدفن يستحبّ خلط تربة الحسين عليه السلام بالكافور ووضعها على مواضع السجود. وبعض آخر من الشيعة يضع شيئاً من تربة سيّد الشهداء عليه السلام على لسان الميت، وبعبارة أخرى أنّ الشيعيّ تدغدغ مشامّه ريح الحسين عليه السلام منذ أن ترى عيناه النور، ثم يقضي وسبط الرسول وردُه المستمرّ، وعندما توافيه المنيّة يأخذ معه من تربة حبيبه الحسين عليه السلام عنواناً للمحبّة.

والملفت للنظر أنّ شهادة الإمام الحسين عليه السلام، هي من الميّزات التي انفرد بها، فكلّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام التحقوا

بالرفيق الأعلى وهم شهداء، بيد أن طريقة وظروف استشهاد الإمام الحسين عليه السلام تختلف عن طريقة وظروف استشهادهم عليهم السلام، إنّه سيّد شهداء العالم.

حقّاً، وهل يُعرف على مدى العصور شهيد كالحسين عليه السلام، فآثار استشهاد الحسين عليه السلام فريدة من نوعها في تجلّي الفضائل الإنسانية في الأزمنة اللاحقة. ويورد الشيخ جعفر التستري ـ أحد كبار علماء الشيعة ـ في كتابه «الخصائص الحسينية» المئات من الخصائص التي ينفرد بها الإمام الحسين عليه السلام. إنّ سيّد الشهداء عليه السلام شخص فريد من نوعه، ولم نر مثيلاً له لا من قبله ولا من بعده.

الباحة الحسينية فِناء الأرواح الطاهرة

السلام التالي يخصّ الوجود المقدّس للإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الأوفياء: «.. **السلامُ عليكَ وعلى الأرواحِ التي حلّت بِفنائكَ**». والأرواح: جمع روح، والروح: هي حقيقة الإنسان وجوهره، فإنسانيّة الإنسان متعلّقة بتلك الحقيقة التي اسمها الروح. أمّا مصدر كلمة «حلّت» فهو «حلول»، أي الاستقرار في مكان ما. و«**الفِناء**»: هو باحة المنزل والقسم الأماميّ منه، أو ما يسمّى اصطلاحاً «العتبة».

والعبارة المذكورة تعني إلقاء السلام عليك وعلى الأرواح الطاهرة والمقدّسة التي أناخت برؤوسها عند عتبتك الرفيعة،

وحطّت رحالها في ساحتك، وأدّت واجبها في حضرتك.

وحينما تصل القافلة إلى مقصدها تضع رحالها مطمئنّة على الأرض، وتنكث عن نفسها غبار السفر. أما شهداء كربلاء المقدّسة وبعدما تفانوا بواجبهم ونصروك حتى آخر لحظة من حياتهم، وحاموا عنك وعن دينك وحرمك مضحّين من أجل ذلك كلّ وجودهم، رقدوا بجوار حقيقة وجودك الوضّاء، ورقدت أجسادهم في ساحتك.

سلام أبديّ

ثم يقول الزائر: «**عليكُم منّي جميعاً سلامُ اللهِ أبداً ما بقيتُ وبقيَ الليلُ والنهارُ**».

والعبارات التي تصدّرت الزيارة الشريفة ـ وإلى ما قبل هذه العبارة ـ كانت مع سيّد الشهداء عليه السلام، لكنّها هنا تخاطب كل أهالي عاشوراء. وفي هذه العبارة ينبغي الالتفات إلى أمرين؛ الأوّل: أنّ السلام في العبارات السابقة كانت منطلقة مباشرة من الزائر نفسه، ولكنّه يعمد هنا إلى نقل سلام الله تعالى إلى هؤلاء العِظام، وكأنّه حينما يصل إلى هذا المقطع يقول: أنتم مصداق العبودية لله تعالى، والامتثال لابن رسول الله وأمير المؤمنين والصدّيقة الطاهرة عليهم السلام، وأنتم ثار الله تعالى وأنا لا أجد نفسي مؤهّلاً للسلام عليكم، وإن سلّمت فإنّما أقدّم سلام الله تعالى عليكم. وهذا المقطع يعكس نوعاً من الأدب والاحترام من قبل

الزائر.

والأمر الثاني الملفت للنظر هو أبديّة السلام الذي يوجّهه الزائر إلى هذه الثلّة الطاهرة، فصيغ السلام السابقة كانت محدودة على غير صيغته الجديدة التي تتحدّث عن الديمومية إلى أن يأخذ الله تعالى الأرض ومن عليها: «**ما بقيتُ وبقيَ الليلُ والنهارُ**»، بمعنى أنّني أسلّم عليكم إلى يوم البعث، حيث أتمنّى الفوز بالجنّة بشفاعة الحسين عليه السلام وهناك أسمع جواب سلامي من سيّد الشهداء عليه السلام. سأرحل عن هذه الدنيا ولن أكون فيها، لكنّ سلامي سيكون خالداً؛ يقول الشاعر سعدي واصفاً حسرته يوم توسيده التراب:

وا حسرتاه ما أطول هذه الدنيا دوننا!

زهور تتورّد وربيع يتجدّد

ما أكثر أشهر تير ودي وأرديبهشت![1]

هي تظهر ونحن تراب ولِبنة

ولكنّه مهما توالت الأيّام وانقضت السنون فإنّ زائر الحسين عليه السلام لن يكون من ذلك التراب وتلك اللِبنة. لقد خلّد نفسه بهذا السلام، وسيظلّ سلامه وافداً على سيّد الشهداء عليه السلام متى ما طلعت الشمس حتّى يوم القيامة.

فالقطرة الممتزجة بماء البحر لم تعد مجرّد قطرة، كما أنّ

١- إشارة إلى أشهر من السنة الشمسية الهجرية الإيرانية من فصول مختلفة؛ «تير» من أشهر الصيف، و «دي» من أشهر الشتاء، و«أرديبهشت» من أشهر الربيع.

الذرّة التي طلتها أشعّة الشمس الذهبية صارت جزءاً من أشعّة الشمس. وحينما يسلّم زائر الحسين عليه السلام على الحياة الأبدية ويقف عند حضرة سيّد الشهداء، يكون في الواقع قد انتشل نفسه من الموت وجعلها في عالم الخلود محلقاً بأجنحة السلام نحو ساحل النجاة.

إمام المنتقمين

ركّزت زيارة عاشوراء في تسلسلها المفاهيميّ على الصلة الوثيقة بين ما حصل في واقعة الطفّ وبين ما سيحصل عند ظهور الإمام المهدي المنتظر «عجل الله تعالى فرجه الشريف». فقد أشارت في موضعين إلى إمام زماننا عليه السلام ودوره في الأخذ بثأر تلك الدماء الطاهرة؛ الأوّل: «**فأسألُ اللهَ الذي أكرمَ مقامَكَ وأكرمَني بكَ أن يرزُقَني طلبَ ثارِكَ مع إمامٍ منصورٍ مِن أهلِ بيتِ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله**». وفي الموضع الثاني: «**فأسألُ اللهَ الذي أكرمَني بمعرفتِكُم ومعرفةِ أوليائِكُم ورزَقَني .. معَ إمامٍ هدىً ظاهرٍ ناطقٍ بالحقِّ منكُم**».

و«الإكرام» يعني التكريم والتقدير ومنح شيء لم يمنح للآخرين. لقد أكرم الله تبارك وتعالى الإمام الحسين عليه السلام، إذ خصّه بما لم يخصّ غيره من الخصال، وجانب من تلك الخصال أشرنا إليها تحت عنوان «**شهيد ليس كسائر الشهداء**»، وهنا سنوضّح جانباً من إكرام ربّ العزّة للشيعة.

وانطلاقاً من كون وجودنا رهن بوجود الإمام الحسين وسائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فإنّنا قد حظينا بفضل وجوده المقدّس برشفة من ذلك الإكرام، وعبرنا بواسطة سفينة النجاة أمواج البحر المتلاطمة لعالمنا المادّيّ، وتوالت خطواتنا باتجاه بيت الحسين عليه السلام الذي هو منصّة العروج نحو الباري تبارك وتعالى.

إنّ مجرّد أن يحظى الزائر بتوفيق الوقوف عند الإمام عليه السلام والسلام عليه وزيارته والمشاركة في مجلس عزائه وسكب العَبرة على مصيبته، يعدّ واحداً من أكبر مظاهر الإكرام والعناية الإلهية لأتباعه. ولا أحد يعلم بماذا سيجازى من ثواب جميل وعطاء جزيل في عالم الدنيا والبرزخ والجنّة فيما لو سكب دمعة واحدة على سيّد الشهداء عليه السلام وهو عارف بحقّه؟ أليس ذلك إكراماً للشيعة من قبل الله تبارك وتعالى؟

ويقول الزائر: أتمنّى أن أوفّق بعد معرفة الإمام الحسين عليه السلام إلى أن أكون في ركب المنتقمين له.

وإبقاء الباب مفتوحاً لمعرفة أهل البيت عليهم السلام وإتاحة الفرصة لنا للتوسّل بهم هو بحدّ ذاته أعظم عناية وإكرام إلهيّ للشيعة، خاصّة وأنّ أصل تلك المعرفة حقيقة لا يمكن إدراكها. حتّى لو أمضينا كلّ أيّام عمرنا لمعرفة حقيقة ذلك النور المقدّس والطاهر، لما استطعنا بلوغ درجة معرفتهم بالشكل الكامل.

ولكنّ هذه الأيّام التي تتصرّم في طريق معرفتهم هي رصيد الإنسان. ولو وصل الإنسان في النهاية إلى مرحلة رأى فيها أنّه

لم يستطع معرفتهم، لكان في الحقيقة قد وصل إلى نقطة البداية لمعرفتهم، شأنه شأن من يخوض في السير والسلوك لمعرفة الله تعالى، فإن أقرّ بعجزه عن معرفة الله تبارك وتعالى كان قد بلغ أعلى المراتب. وفي الحقيقة أنّ حجم معرفتنا بقدر وعاء وجودنا، لكنّنا في مقابل تلك الحقيقة نعدّ من الجهلاء مهما كان حجمنا إزاءها. لهذا لا مناص لنا من الاعتراف بعجزنا، كما هو الحال بشأن شكر النعم الإلهية الذي ليس لأيّ عبد أن يتمكّن أداء حقّ الشكر لله تبارك وتعالى، بيد أنّ اعترافه بعجزه عن الشكر أفضى به إلى مقام الشكر.

إنّ حقيقة النعمة من العظمة بحيث لو تظاهر كافّة العالمين إلى يوم الدين، على عدّ نعم الله تعالى لما قدِروا، بل ولن يبلغوا الدرجة الأولى من سلّم الشكر.

لو تحوّلت كلّ شعرة في جسدي إلى لسان
لما استطعت أن أؤدّي شكر واحد بالألف

ولهذا السبب يقرّ أهل المعرفة بعجزهم، ويسجدون متذلّلين له عزّ وجلّ يردّدون بنوايا مخلصة وألسنة صادقة: «ما عرفناكَ حقّ معرفتِكَ وما عبدناكَ حقَّ عِبادتِكَ».

قيل: إنّ الشاعر الشيعيّ الكبير «فردوسيّ» شوهد في المنام وقد اعتلى منزلة عالية في الجنّة، وقد أغدق عليه بوافر النعم الإلهية، فسُئل: كيف وصلت إلى هذه المنزلة؟ فأجاب: إنما هو بسبب هذا البيت الذي نظمته:

العالم بمرتفعاته ومنخفضاته هو أنت
لا أعرف ما أنت، فالوجود كلّه أنت

بمعنى بين آلاف الأبيات الشعرية المنظومة على مدى عشرات السنين من عمره المديد، كان هذا الاعتراف بالعجز هو المستحقّ للأجر والثواب الأخرويّ.

مجرّد أن يلتفت الإنسان إلى حقيقة أهل البيت عليهم السلام، ويستشعر العجز في مقابل تلك الحقيقة الكبيرة، ويردّد: أنا لا أدرك ولا أستطيع أن أدرك من أنتم، وحقيقة وجودكم جزء من الأسرار الإلهية، وليس لأحد سوى الله جلّ وعلا وأوليائه الخاصّين أن يدركوا حقيقة منزلتكم. أنا أعرف فقط أنّ كلّ هذا العالم خُلق ليكون في خدمتكم، إنّ هذه المعرفة التي هي ذروة الإقرار بالعجز تمثّل أعلى مراتب المعرفة وواحدة من مصاديق إكرام الله تعالى للشيعة وإعزازه لهم.

الثأر لدم الحسين عليه السلام مع المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف».

«أن يرزُقَني طلبَ ثارِكَ معَ إمامٍ منصُورٍ من أهلِ بيتِ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله».

أسأل الله تعالى الذي شملني حتّى الآن بعنايته ولطفه ورزقني توفيق زيارتك ومعرفتك أن يوفّقني للأخذ بثأرك والانتقام من أعدائك، وأسأل الله تعالى أن أنضمّ إلى صفّ الآخذين بثأر سيّد

الشهداء عليه السلام في ركب «**الإمام المنصور**».

والزيارة الشريفة أطلقت على الإمام المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» لقب «**الإمام المنصور**»، ذلك أنّه سيُنصر من قبل الله تعالى، وإلى ذلك تشير الآية المباركة:

﴿ولا تقتُلوا النّفسَ التى حرَّمَ الله إلا بالحقّ ومَن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوَليِّهِ سُلطاناً فلا يُسرف فى القَتلِ إنَّهُ كانَ مَنصُوراً﴾.[1]

بمعنى أنّ الله تبارك وتعالى أقرّ حقّ القصاص في الانتقام لدم مَن قُتل مظلوماً، بل لا يعتبر من الإسراف الانتقام لدم المظلوم فربما شارك عشرة أشخاص بقتل شخص ما لكنه في المقابل يقتل شخص واحد من أولئك العشرة في مقابل ذلك المقتول. نعم يستطيع أولياء المقتول في نفس الوقت قتل التسعة الآخرين بعد دفع ديتهم انتقاماً لدم المقتول. وسيُنصر المنتقم للمقتول في مثل هذه الظروف، وإنّ الله تعالى المدافع عن حرمة المظلوم الذي أريق دمه ظلماً وعدواناً.

لقد ورد في تفسير الآية الآنفة الذكر رواية عن الإمام الباقر وكذلك عن الإمام الصادق عليهما السلام، توضّح لنا وبكلّ شفّافية مفهومها:

قال أبو جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿ومَن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لوَليِّهِ سُلطاناً ..﴾** هو الحسين بن عليّ عليهما السلام، قُتِل مظلُوماً، ونحنُ أولياؤهُ، والقائمُ مِنّا إذا قامَ طلبَ بثأرِ الحسينِ عليه السلام، «فيَقتلُ

١- الإسراء: ٣٣.

حتى يُقالَ: قد أسرَفَ في القتلِ ..».[١]

وقال أبو عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: **﴿فلا يُسرف في القتلِ﴾**، نزلت في الحسين عليه السلام لو قُتِلَ أهلُ الأرضِ بهِ ما كانَ سرَفاً.[٢]

وكما تلاحظ يؤكّد ربّ العزّة في الآية الشريفة أنّنا منحنا صاحب هذا الدم الحكم والقوّة، وأقررنا له حقّ القصاص، بحيث إنّه لو قتل كافّة أهل هذا العالم من أعداء الحسين عليه السلام انتقاماً لدمه الشريف، لما كان من الإسراف في شيء، بل وسيحظى بنصرتنا.

وكأنّ الزائر يردّد في هذا المقطع من زيارة عاشوراء: أستشعر الألم وهو يعتصر قلبي من فرط غضبي وحقدي المقدّسين إزاء قتلَة سيّد الشهداء عليه السلام. أشعر وكأنّ وجودي يلتهب ناراً من لوعة هذا المصاب، وأشعر وكأنّ المأساة ألقت بظلالها على ثنايا هذا العالم، ولهذا أسأل الله تعالى أن أكون حاضراً عندما ينتفض الثائرون لدم شهداء هذه الواقعة الجليلة. إنّها مسألة سيلبّيها الله تعالى فيما لو كانت مشفوعة بالصدق وبخلوص النيّة.

يقول علماء الإسلام فيما يتعلّق بالرجعة: عند ظهور إمام العصر والزمان «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» فإنّ أولئك الشيعة وأولياء الله الذين قضوا أعمارهم في انتظار مثل هذا اليوم، وكانوا يتحرّقون شوقاً إلى عصر الظهور، ولكنّهم رحلوا

١- *بحار الأنوار*، ج ٤٤، ص ٢١٨.

٢- *أصول الكافي*، ج ٨، ص ٢٥٥.

عن هذه الدنيا قبل بزوغ شمس هذا العالم؛ إمام الزمان «عجّل الله تعالى فرجه الشريف»، سينكثون عن أجسادهم تراب القبر وتعاد إليهم الحياة، ويلتحقون بالمهديّ من آل محمّد لينصروه.

فهؤلاء كانوا يقرأون في صباح كلّ يوم دعاء العهد، ويجدّدون البيعة لإمامهم، ويسألون الله تعالى متوسّلين:

«اللهُمَّ إن حالَ بيني وبينَهُ الموتُ الذي جعلتَهُ على عبادِكَ حتماً مقضيّاً، فأخرجني مِن قبري مؤتزراً كفَني، شاهراً سيفي، مجرِّداً قناتي، ملبّياً دعوةَ الداعي في الحاضرِ والبادي».

إنّ العبارة الثانية التي أشرنا إليها في بداية هذا المقطع الفرعيّ رويت على صيغتين مختلفتين؛ ففي رواية جاءت لفظة «ثاري»، وفي رواية أخرى جاءت بلفظ «ثاركم»، وكلّ من الروايتين يحمل معنى ظريفاً، كأن يقول الزائر: أريد أن أنتقم لدمي، أي أنّ دم الإمام الحسين عليه السلام يخصّني وأشعر أنّه تربطني به قرابة، وأقف في صفّ المنتقمين لذلك الدم العزيز باعتبار الابن المعنوي لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

أمّا إذا قال: «ثاركم»، فمعناه آمل أن أنتقم لدمكم، حيث أنتم المنتقمون، وما منحي رخصة الانضمام إلى صفّ المطالبين بالثأر إلّا لطف وعناية من الله تبارك وتعالى.

إمام الهداية

في المقطع التالي من زيارة عاشوراء الشريفة وبعد طلب

المشاركة في الانتقام تجري الإشارة إلى عدد من خصائص الإمام المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف»؛ الخصيصة الأولى تتحدّث عن منصب الهداية والإرشاد في وجوده المقدّس؛ «**إمامٍ مهديٍّ**» أو «**إمام هدىً**»، والتي تُقرأ بالصيغتين. و«**مهدي**»: اسم مفعول من الفعل هدى يهدي هدياً، وهو قد هُدي إلى الطريق القويم من قبل الله تعالى، فهو «**مهديّ**».

وكلمة «**هُدى**»: مصدر بمعنى الهداية والإرشاد؛ «**إمام هُدى**»، أي الإمام الهادي والمرشد. وبشيء من التدقيق في تركيب المصطلح الأخير يتّضح وجود ظرافة أدبية ملفتة. وهذا النوع من التركيب إنّما يأتي لتبيين المبالغة، فبدل أن نقول: الإمام الهادي، نقول: إنّه الإمام الذي هو الهُدى بعينه. ومن أمثلة هذا النوع من التركيب قولنا تارة: «**عليٌّ عادلٌ**»، أي أنّ عليّاً عليه السلام يعمل ويحكم بالعدل، وتارة نقول: «**عليٌّ عدلٌ**»، والمراد هو أنّ عليّاً عليه السلام هو العدل بذاته، بل إنّ العدالة تُعرف بواسطة عليّ عليه السلام.

علماً أن تركيب «**إمامِ هدىً**» يكتنف أيضاً مفهوم المبالغة والتأكيد؛ يعني أنّ المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» هو الهداية بذاتها، بل ولفظة الهدى يتجلّى معناها مع وجوده المبارك عليه السلام، فهداية آفاق وأنفُس وظاهر وباطن العالم متعلّقة به.

شمس وراء السحاب

الخصيصة الأخرى لإمام العصر والزمان «عجّل الله تعالى

فرجه الشريف» في هذه الزيارة هي أنّه «ظاهر»، فكلّنا نعرفه بأنّه الإمام الغائب، إذاً فلماذا يوصف في الزيارة الشريفة بالظاهر؟ في جواب هذا السؤال احتمالان:

الاحتمال الأوّل: أنّ هذه الخصلة بيّنتها رسالة الإمام الحجّة «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» إلى الشيخ المفيدﷺ، حيث يقول: «**وأمّا وجهُ الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيّبها عن الأبصار السحاب**»؛ أي رغم أنّه غائب في ظاهر الأمر لكن العالم يستفيد من نور وجوده.

الاحتمال الآخر هو أنّ إمام العصر «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» ظاهر ومعروف في زمن الغيبة للشيعة الحقيقيّين، فرغم اختفائه عن أنظار العامّة لكنّ الروح التي تراه حاضراً ومراقباً لها في كلّ يوم وكلّ ساعة فإنّها سترى وجوده المقدّس عياناً. إنّنا نعزل أنفسنا عنه بستار وحاجب، نعم أعمالنا وسلوكنا هو الذي حجبنا عنهعليه السلام.

وفي هذه اللحظة هناك من ينعم ودونما أيّ حجب برؤية جماله الأخّاذ. وحينما يفيقون مع إشراقة الصباح من النوم وينتبهون من رقودهم، يلقون نظرة إلى السماء وأخرى إلى الأرض، فيستشعرون رحمة الإمام «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» تظلّل على العالم، ويرون حكومته على الملك والملكوت. إنّهم يعلمون أنّ نفَسهم يتحرّك بواسطته، وبسببه هم أحياء، ومن فضله يأكلون ويعيشون، مثلما قال الإمام

الحسين عليه السلام في دعاء عرفة عندما خاطب ربّ الجلالة:

«عَمِيَت عينٌ لا تَراكَ عليها رَقيباً وخَسِرَت صفقةُ عبدٍ لم تجعَل لهُ من حبِّكَ نصِيباً».

ويتوجّه أهل العرفان والمعرفة بنفس هذا الخطاب أيضاً إلى إمام العصر والزمان «عجّل الله تعالى فرجه الشريف». فيا إمام العصر! عميت عين لم تر جمالك الوضّاء وشمس وجودك الساطعة في كافّة أرجاء العالم، ولم تر نورك؛ نور السماوات والأرض.

على أنّه يمكن اعتباره «ظاهراً» لجهة حتمية ظهوره في المستقبل. وها هي بشائر نوره تطالعنا مع بشائر الصباح حتّى تستشعر الشمس خلف سحاب تنتظر الإذن بالطلوع. لقد كان بزوغ نور الإمام الخميني قدس سره وظهور الثورة الإسلامية المقدّسة بمثابة فجر الصباح الذي ستتلألأ فيه شمس الإمام «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» وتغطّي خيوط أشعّتها الذهبية سماء هذا العالم.

الخصيصة الأخرى الواردة في الزيارة الشريفة هي كونه «**ناطِق بالحقّ**»، ويتّصف كافّة الأئمّة الأطهار عليهم السلام بهذه الصفة إلا أنّ الإمام المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» هو المصداق اللامع والمختصّ بها، إذ لم يتمكّن أيّ من الأئمّة المعصومين عليهم السلام أن يفصح عن كامل معارفه وعلومه للبشرية، ألم يقل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

«**يا كميل! إنَّ هاهُنا لعِلماً جمّاً** (وأشارَ بيده إلى صدرهِ) **لَو أصبتُ لهُ حمَلَة ..**».[١]

الأئمّة الآخرونعليهم السلام كلّ منهم لم يُظهر سوى غيض من فيض علومه، غير أنّ إمام العصر والزمان «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» سيكون في زمن ظهوره «**ناطقاً بالحقّ**»، وسيميط اللثام عن الأسرار بعد ظهوره.

تجسيد ظلامة البشرية

النقطة التي تستحقّ التأكيد في انتقام الإمام الحجّة «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» لدم جدّه الحسينعليه السلام هي أنّ ظلامة أبي عبد الله الحسينعليه السلام لا يمكن سبر غورها وفهم كنهها ووصفها. فكلّ دماء المظلومين عبر التاريخ من هابيل إلى يوم القيامة لن تكون قيمتها بمنزلة الدم المبارك لسيّد الشهداءعليه السلام، لقد أريق هذا الدم في ذروة الظلامة ولم يتمّ حتّى الآن الثأر له.

وبالرغم من أنّ قتلَة الإمام الحسينعليه السلام لقوا حتفهم في ثورة المختار، لكنّ إمام العصر والزمان «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» وحده الذي سيبيد الظلَمة برمّتهم، ويثأر لتلك الظلامة دفعة واحدة. إنّ «**ثار الله**» قد تجلّى فيه كلّ ظلامات البشرية عبر التاريخ. لقد تجسد في واقعة كربلاء كلّ أنواع الظلم والجور التي ارتكبت ضد المؤمنين وأولياء الله تعالى منذ بدء الخلقة. وبتعبير

١- ***خصائص الأئمة***، ص ١٠٥.

آخر يمكن القول: إنّ ظلامة البشرية برمّتها قد تمثّلت في قضيّة الحسين عليه السلام، ولذا فالانتقام لهذا الدم لن يتحقق طالما بقي هناك عرق للظلم ينبض في العالم.

وهذا الأمر سيتحقّق حين ظهور الإمام المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف»، فيطوي بعون الله تعالى وإرادته بساط الفتنة والفساد الممتدّ على وجه البسيطة، وحينئذ فقط يتحقّق مصداق الحديث الشريف:

«يَملأ الله الأرضَ قِسطاً وعَدلاً كما مُلِئت ظُلماً وجَوراً».

إنّ دم سيّد الشهداء عليه السلام سيظلّ يفور في شرايين أنصار الحقيقة إلى حين عصر الظهور، إلى حين يستدعي الإمام المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» أنصاره، فيرفع أتباعه ألوية قد زُيّنت بشعارات «**يا لثاراتِ الحسينِ**».

ميثاق للإعلان عن الغضب

الموضوع الآخر الذي يستلزم بحثاً معمّقاً ودقيقاً هو اللعن الذي تمّ التصريح به وتأكيده في غير موضع من الزيارة الشريفة.

اللعن رمز الاستياء

يلجأ الإنسان إلى التحيّة والإكرام حينما يريد التعبير عن عمق محبّته وودّه للآخرين؛ يستقبل صديقه بوجه بشوش ويسلّم عليه، ثمّ يبدأ حديثه معه بالسؤال عن حاله. وهذا الترحيب والسلام الحميم دليل على المحبّة الخالصة التي يكنّها في قلبه

للطرف المقابل.

ولكن في الطرف المقابل تماماً يحصل أن يقابل الناس بعضهم الآخر وسيماهم مكفهرّة؛ تعبّر عن الاستياء والامتعاض والحقد. والنظرات المحتارة وذات المعنى، والوجوه العبوسة، والحاجبان المقطّبان، والعينان المتّقدتان غضباً، كلّها مظاهر من اللعن والاستياء المضمر في الداخل. ولا شكّ أنّه إذا كان هناك كلام متبادل بينهم ففاحت منه ريح العداوة والحقد، وكلّ كلمة فيها تعكس النفرة والاشمئزاز.

وفي الحقيقة أنّ اللعن باللسان وسيلة للتعبير عن التنفّر والكره الداخليّ. فعندما يلعن المرء عدوّه يريد أن يقول له: «موقفي منك واضح؛ أنا في صفّ من يقاتلك، أريد بك سوءاً، وأكرهك بكلّ وجودي».

وبالرجوع إلى القرآن الكريم يتبيّن أنّ الله تبارك وتعالى أورد لفظة اللعن بثلاث صيغ؛

الصيغة الأولى: تتحدّث بعض الآيات المباركة عن لعن الله تعالى لمجموعة من الناس؛ مثل:

﴿إنّ اللهَ لعَنَ الكافِرينَ﴾.[1]

﴿أولئكَ الذينَ لَعنَهُمُ اللهُ﴾.[2]

﴿ألا لَعنَةُ اللهِ على الظالمينَ﴾.[3]

١- الأحزاب: ٦٤.

٢- النساء: ٥٢.

٣- هود: ١٨.

الصيغة الثانية: بعض آخر من الآيات المباركة يتحدّث عن لعن الملائكة والأنبياء لمجموعة من الناس، وكذلك لعن بعض الناس لبعضهم الآخر؛ مثل:

﴿عليهم لعنَةُ الله والملائكة والناسِ أجمَعينَ﴾.[١]

﴿ثـمَّ يَومَ القِيامَة يَكفُرُ بَعضُكُم ببعضٍ ويَلعَنُ بعضُكُم بعضاً﴾.[٢]

﴿أولئكَ يَلعنُهُمُ الله ويَلعنُهُمُ اللاعِنونَ﴾.[٣]

الصيغة الثالثة: آيات أخرى تحتوي على مفردات بلعن توجّهه مجموعة من الناس إلى مجموعة أخرى، ولكن على لسان الباري تعالى، كما في **﴿فَنَجعَل لعنةَ الله على الكاذبينَ﴾**.[٤]

إنّ اللعنة في الصيغة الأولى جاء بمعنى الإبعاد عن الرحمة الإلهية، أي أنّ الله تبارك وتعالى يعلن براءته من الشخص المخصوص باللعن، ويقرّر أن لا مكان لمثل هؤلاء ضمن ولايته، وبالتالي سيكون من المخلّدين في عذابه.

أمّا الصيغة الثانية من اللعن فتنظر إلى معنى السبّ والامتعاض والنفور.

وفي الصيغة الثالثة ـ وإلى جانب إعلان امتعاضه ورفضه ـ يسأل الإنسان ربّه أن يطرد طرفه المقابل عن الرحمة الإلهية.

١- آل عمران: ٨٧.

٢- العنكبوت: ٥.

٣- البقرة: ١٥٩.

٤- آل عمران: ٦١.

يختصّ هذا التصنيف بنماذج اللاعنين، أما الملعـونين فهنـاك آيات مختلفة بشأنهم، فتارة يكـون الكفّـار هـم مـن يحـلّ بهـم اللعن، ويكون مصـيرهم النـار والعـذاب الألـيم **﴿فبما نقضِهم ميثاقَهُم لعنّاهم و..﴾**[١]. وتارة المفسدون **﴿والذينَ ينقُضُونَ عَهدَ الله مِن بعدِ ميثاقِهِ ويقطَعونَ ما أمرَ الله بهِ أن يُوصَلَ ويُفسِدونَ فى الأرضِ أولئكَ لهُمُ اللعنَةُ ولهُم سُوءُ الدّار﴾**[٢]. وأخـرى مَـن يـتّهم الإناث المحصـنات بالفحشـاء **﴿إنّ الذينَ يَرمُونَ المُحصَناتِ الغافِلاتِ المؤمِناتِ لُعِنُوا فى الدّنيا والآخرة ولَهُم عذابٌ عظيمٌ﴾**.[٣] الصنف الرابع من الملعونين يتعلّق بمن يحيط علمـاً بالحقـائق، لكنّه يخفيه ويلتزم الصمت حينما يجب عليه إظهـاره **﴿إنّ الذينَ يكتُمُونَ ما أنزَلنا مِنَ البيِّناتِ والهُدى مِن بعدِ ما بيّنّاه للنّاسِ فى الكتابِ أولئكَ يَلعَنُهُمُ الله ويلعَنُهُمُ اللاعِنونَ﴾**.[٤] وهكذا مَـن يـؤذي الله تعالى ورسولهﷺ، فقـد ورد لعنـه فـي القـرآن الكـريم **﴿إنّ الذينَ يُؤذونَ اللهَ ورسُولَهُ لعَنَهُمُ الله فى الدّنيا والآخِرة﴾**.[٥]

١- المائدة: ١٣.

٢- الرعد: ٢٥.

٣- النور: ٢٣.

٤- البقرة: ١٥٩.

٥- الأحزاب: ٥٧.

الحرمان من الحسين عليه السلام مصيبة عظمى

تقول الآية الثانية والأربعين من سورة القصص المباركة: ﴿**وأتبَعناهُم فى هذهِ الدّنيا لعنةً ويَومَ القيامةِ هُم مِن المقبُوحينَ**﴾.

كما قلنا آنفاً: تعني لعنة الله تعالى يوم القيامة الإبعاد عن الرحمة الإلهية والابتلاء بعذاب جهنّم، لكنّ الآية المباركة المذكورة تتحدّث عن لعنة ربّ العزّة في الدنيا، فما معنى لعنة الله تعالى في الدنيا؟

الإجابة عن هذا السؤال يحتاج إلى شيء من التمهيد، إنّ الرحمة هي أساس صفتين من صفات الله تبارك وتعالى؛ الرحمان والرحيم، فالرحمة الرحمانية هي التي لا تشمل الناس كلّهم فحسب بل جميع عالم الكون إذ تغطّي بظلالها المؤمن والكافر، الحرّ والعبد، والعالي والداني. ولعلّ من جملة مصاديقها أصل الوجود والقدرة الجسمية والعقلية والقدرة المالية والاقتصادية.

أمّا الرحمة الرحيمية فهي الخاصّة للمؤمنين وعباد الله الحقيقيّين. نعم قد يكون الكافرون والعاصون والمذنبون من الناحية الظاهرية أحياناً أحسن حالاً، بل وأقوى وأصحّ أجساماً وأطول أعماراً مقارنة بالمؤمنين، ذلك أنّ الرحمة الرحمانية لا تُرفع غالباً بحلول اللعن، أي أنّ الله تبارك وتعالى يُمهلهم حتّى يعمهوا في غيّهم، ويجري اختبارهم بشكل كامل، ويُعدموا الحيلة والحجّة حتّى يسيرون بأقدامهم إلى الهلاك بالتدريج.

هذا في حين أنّ الرحمة الرحيمية للباري تعالى تُرفع عنهم بحلول اللعن، حيث لا حظوة لأولئك في المعارف الإلهية واللذّات المعنوية، ولا خلاق لهم في الارتباط بعالم الغيب وحلاوة ولذّة المناجاة والتحليق في سماء العشق ومودّة أولياء الحقّ. وكلّما انقضت أيّام عمرهم المشؤوم كلّما غطّوا أكثر في وحل الانحراف واقتربوا أكثر من سقر. والدليل على ذلك أنّهم محلّ غضب وسخط الله تعالى ولعنته رغم ما يتمتّعون به من سلامة ظاهرية ونِعم مادّية.

وهل يوجد في الدنيا عذاب أقسى من أن يُحرم شخص من مناجاة الله تعالى والأنس بالقرآن الكريم والمعارف الإلهية ومحبّة أبي عبد الله الحسين عليه السلام؟ وهل مصابه أكثر ألماً ممّن لا يستشعر وجود إمام زمانه ولا يستطيع التحليق بذكره في الأعالي؟

عدوّ النفس

ورد في دعاء من الأدعية الواصلة إلينا عن أحد الأئمّة المعصومين عليهم السلام، **«يا مَن سَبقَت رحمتُهُ غضبَهُ»**. نحن نفهم من هذه العبارة أن لا نهاية للرحمة الربّانية، وهي مستمرّة في كافّة مناحي العالم وتحيط بالغضب. ولعلّ الصواب القول: إنّ هداية العباد نحو السعادة من المصاديق البارزة للرحمة الإلهية. وعلى هذا الأساس يبرز للسطح السؤال التالي: لماذا يلعن الله تعالى

بعض الناس ويطردهم من دائرة رحمته؟ ولماذا أغلق طريق السعادة بوجههم وقبل بانحرافهم؟

الجواب هو أنّ الله تعالى ليست له أيّة عداوة مع هؤلاء حتّى يعذّبهم ويرفع عنهم يد رحمته، بل الحالة التي وصلوا إليها إنّما هي جرّاء أعمالهم وسلوكهم. هم الذين اختاروا هذا المسير. وإلى ذلك تشير الآية ٨٨ من سورة البقرة المباركة **﴿بَل لَعنَهُمُ الله بِكُفرِهِم﴾**. إنّهم وقفوا بوجه الحّق وحجبوا نور الهداية عن أن يصل إلى البشرية. ولم يرغبوا في المسير إلى طريق العبودية الحقّة وصولاً إلى برّ الأمان بسلام. لقد شاهدوا الحقّ بأنفسهم لكنّهم أنكروه، وساقوا أنفسهم إلى شفا هاوية الباطل، وأصرّوا على معاداة الحقيقة، وأبعدوا أنفسهم بإرادتهم عن الرحمة الإلهية، وإلا فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلقهم كغيرهم كي ينعموا بلطف هدايته ويبلغوا السعادة، وهو الذي دلّهم على الصراط المستقيم وفتح لهم باب الثواب.

وبنفس الاتّجاه تتحدّث الآية العاشرة من سورة البقرة المباركة **﴿فى قُلوبِهِم مرَضٌ فزادَهُمُ الله مرَضاً﴾**. وبعبارة أخرى من يمتطي مسير الكفر والظلم والنفاق فكأنّه قد سار في مسير شديد الانحدار؛ تزداد سرعته لا إرادياً نحو الهاوية، وهذا السقوط هو مآل ذلك المسير. وحينما يتحدّث الكتاب العزيز عن أنّ الله تبارك وتعالى يُزيد في مرض هذه الفئة من الناس، فلا يعني ذلك أنّه يريد لهم المزيد من الانحطاط والسوء والتخبّط،

بل إنّ خصيصة مرض النفاق هي أنّ من ابتلى به ولم يعالج نفسه بدواء التوبة فإنّ ذلك الالتهاب سيتعمّق يوماً بعد آخر، وستنتشر الغدد السرطانية فيه إلى أن يهلك.

إنّ الآية ﴿**فَزادَهَمُ الله مرَضاً**﴾ تعني أنّ الله تبارك وتعالى أبعد الرحمة عنهم، ذلك لأنّهم هم الذين رغبوا عن الاستظلال بالرحمة والهداية الإلهية. وهؤلاء بمجرّد أن يحرمهم الخالق تعالى من لطفه يتساقطون في هوّة الضلال، شأنهم شأن المريض الذي يعمد إلى الإساءة للطبيب بدل أن يطيع أوامره وتوصياته الطبّية، ولا يكتفي بعدم الامتثال لوصاياه، وإنّما يوبّخه لحضوره عنده ومعاينته ومعالجته! في مثل هذا الوضع يكفي الطبيب أن يعزف عن مواصلة معالجته وبالتالي سيؤول الأمر إلى استفحال مرضه وتزايد آلامه حتّى يحتضر.

وعندما يمتطي شخص باختياره طريق الكفر والظلم والنفاق ﴿**ظُلُماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ**﴾[١]، فإنّ الغشاوة والعتمة ستغلّفان بصره وفكره. إنّ كلّ خطوةٍ تقطع إلى الأمام في هذا المسير الذي لا عودة فيه تعني ظلمة فوق ظلمة حتّى تغطّي حجب الظلمة فطرته. إنّ الظلم والكفر والنفاق أشبه ما يكون بالمستنقع، فكلّما وقعت فيه قدم غطست أكثر مع مرور الوقت.

إنّ الله تبارك وتعالى يريد السعادة لعباده ولهذا خلقهم، حتّى في الوقت الذي يبتعد الإنسان عن الرحمة الإلهية، ينتظر ربّ

١- النور: ٤٠.

العزّة من العبد ما يقبله منه كذريعة كي يعيده مرّة أخرى إلى جادّة الهداية. ولهذا السبب يجعل باب التوبة مفتوحاً أمامه، لكنّ أتباع الشيطان لا يريدون أن يعود إلى ساحة اللطف الإلهيّ.

ومثل هؤلاء الأشخاص يُعبّر عنهم أحياناً بتعابير لا تمتّ إلى الصحّة بشيء، فيقال، إنّه مقسوم له أن يكون تعيس الحظّ، أو أنّه هكذا كُتب على جبينه! ولو دقّقنا في الأمر لوجدنا أنّ الأمر ليس كذلك بالمرّة؛ أن يسقط امرؤ لا إرادياً في هاوية الضلال، رغم أنّ بعض الآيات المباركة تقول: ﴿**يُضِلُّ اللهُ**﴾ و ﴿**أَضَلَّ اللهُ**﴾ و﴿**يُضْلِلِ اللهُ**﴾، لكنّه لابدّ ـ وبمقتضى آيات عديدة وبراهين عقلية ـ من تجاوز المعنى الظاهري لهذه الآيات الشريفة والغوص في عمق محتواها وفحواها.

إنّ الله سبحانه وتعالى أرسل كافّة أنبيائه عليهم السلام إلى الناس لهدايتهم، ورأينا كيف أنّ عدداً كبيراً منهم أوذوا أثناء إرشادهم وهدايتهم للناس واستُشهدوا. إذاً فكيف يمكن تصوّر إلهاً يساعد عبده على أن يهديه ويرشده إلى طريق الكفر والضلال؟

بل الآيات المذكورة تعني أنّ الله تعالى أضاء أنوار الهداية الساطعة في طريق حياة الناس حتّى لا يتيه عباده في ظلمة الحياة المادّية. أمّا إذا أغمض شخص عينيه ولم يهتمّ بأنوار الهداية فماذا سيحصل؟ إذا كفر امرؤ بنِعم الله تعالى وكسر قناديل الهداية المضيئة بدل أن يشكر ربّ العزّة عليها، وهرع إلى طريق الانحراف، فماذا سيحصل؟

إذا كان ممّن ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ**﴾[1] فمن هو المقصّر؟

عتمة الليل قد بدّدت معالم الطريق
يا كوكب الهدى أبِن بطلعتك البهية
أينما ولّيتُ صدري تنهّد حسرة
معاذ الله من قَفر وطريق متمادية

المستضعَفون فكريّاً

ينبغي هنا استثناء فئة من المجتمع من القاعدة التي تحدّثنا عنها في الموضوع السابق، إنّها الفئة التي لم تمتلك القدرة والظروف الملائمة على فهم الحقيقة. أولئك الذين لم تسنح لهم الفرصة بسبب البيئة التي يعيشون فيها لتشخيص صحيح للحقّ والباطل، وللسعادة والشقاء، وللهداية والضلال، وللتكبّر والعبودية، وللكفر والإيمان. هؤلاء الذين انصبّ اهتمامهم على توفير لقمة العيش، وما أهمّهم من الدنيا سوى أنّهم أحياء.

ويُطلق على مثل هذه النماذج في الثقافة الإسلامية اسم «**المستضعَفين فكريّاً**»، وهؤلاء يحاسبون على مقدار فهمهم وإدراكهم، ولا يريد منهم الله سبحانه وتعالى سوى ما فهموه بفطرتهم. أي أنّ المعيار في محاسبتهم هو إطار فهمهم للصحيح والخطأ.

و«**المستضعَف فكريّاً**»: هو مَن لم يدرك طريقاً للصلاح

١- الصف: ٨.

والسداد، وأحاط به الكفر من كلّ جانب حتّى لم يصله خبر عن تعليمات الدين السماوية. وهؤلاء يحدّدهم القرآن الكريم في الآية الثامنة والتسعين من سورة النساء المباركة **﴿إلا المُستضعَفينَ مِنَ الرجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ لا يَستطيعُونَ حِيلَةً ولا يَهتَدُونَ سبيلاً﴾**، وهذه المجموعة استثناها الباري تعالى من الكافرين الذين كان مآلهم إلى جهنّم.

لكنّه في المكان الذي خرقت شمس الهداية حجب الظلام والكفر وتلألأت أشعّة الإيمان، لو اختار فرد في مثل هذه الظروف طريق الضلال عن وعي، لكان قد رمى بنفسه في وادي الشقاء والتعاسة. فإن لم يتب تفاقم مرضه لحظة بعد أخرى، واستفحل أثره في جسمه حتى يصل في نهاية المطاف إلى العذاب الإلهيّ الأليم.

مراتب اللعن

يصنّف اللعن قِبال السلام، وكما هو الأخير يُعدّ للعن له مراتب ودرجات مختلفة. فمثلما يبدأ السلام من أدنى مراتبه ـ وهو بمعنى التعبير عن الصداقة والمحبة ليصل إلى أعلى مراتبه المتمثّل بالتسليم المطلق وقبول الولاية الحقّة ـ فإنّ اللعن يبدأ من أدنى درجاته ـ وهو إعلان الاستياء والامتعاض ـ حتّى يصل إلى أعلاها، وهي الابتعاد عن رحمة الله تعالى. والنقطة التي ينبغي هنا الاهتمام بها هي أنّه لا يجوز شرعاً لعن أيّ شخص

كان. إنّنا لا نستطيع توجيه اللعن إلى شخص لمجرّد كونه خصماً لنا أو لأنّنا لا نرتاح له. وحتّى لو شاهدنا أحداً يرتكب معصية، أو منحرفاً، لما جاز لنا القول: «**لعنة الله عليك**»؛ ذلك ـ وكما قلنا ـ فإنّ اللعنة هي الطرد عن رحمة الله تعالى ولطفه، وأنّه سبحانه وتعالى لا يطرد أحداً من دائرة رحمته إلا إذا وضع نفسه في موضع المحارب والمعاند لله تعالى، ولم يترك لنفسه خطّاً للأوبة. ولذا ينبغي أن يحصل اللعن في الحالات التي يجيزها الله تبارك وتعالى.

وانطلاقاً من هذا المفهوم وممّا جاء به القرآن الكريم، نعمد إلى مناقشة صيغ اللعن الواردة في زيارة عاشوراء.

اللعن الأول الوارد في الزيارة الشريفة هو:

«**فَلعَنَ الله أمَّةً أسَّسَت أساسَ الظُّلمِ والجورِ عليكُم أهلَ البيتِ**».

بتصفّح سجلّ التاريخ والرجوع إلى الوراء لمعرفة سير وقائع التاريخ، نصل إلى «سقيفة بني ساعدة». وهذه التسمية تعود إلى مكان كان المسلمون في صدر الإسلام يلتئمون فيه للتشاور بشأن القضايا المهمّة. غير أنّه تحوّل بعد وفاة النبيّ الأكرمﷺ إلى مصدر المآسي على وجه البسيطة، حيث انعقدت فيه نطفة الظلم الوارد على أهل بيت الرسالة(عليهم السلام). ورزيّة يوم الإثنين المشؤومة تناولتها كتب التاريخ المختلفة بكلّ تفاصيلها، حتّى كبار المؤرّخين من أهل السنّة والجماعة ورواتهم أفصحوا عن تفاصيلها. ونقلوا أنّ «ابن عبّاس» ـ وهو ابن عمّ الرسول الأكرمﷺ

وأحد كبار مفسّري وعلماء الإسلام ـ كان يسير في ذلك اليوم في أزقّة المدينة المنوّرة ويضرب كفّيه إحداهما بالأخرى وقد بدت عليه علامات القلق والحزن، ويردّد: «**فَعلوا ما فَعلوا**».

لقد أشعلوا في ذلك اليوم فتيل الحرب، ففي الوقت الذي لم يكن أحد يجرؤ على مواجهة التحذيرات والأخطار التي تحدّث عنها رسول الله ﷺ، أقدمت مجموعة على ممارسة الخديعة والحيلة وتضليل الرأي العامّ، ودفعت الإمام عن حقّه فلزم منزله.

على أنّ لمفردة «أمّة» في الزيارة الشريفة معنيين، لهذا نجد أنّ اللعن في هذه العبارة تشمل من جهة كافّة مَن سلّم أمره للمخادعين وركن إلى الأهواء النفسية والشهوات الشيطانية، ومن جهة أخرى الخليفة الثاني على وجه الخصوص.

والفريق الأوّل هو مَن حلّت عليه لعنة الله الدائمة؛ حسب ما جاء في القرآن الكريم:

﴿**إنَّ الذينَ يُؤذونَ اللهَ ورسُولَهُ لعنَهُمُ الله فى الدّنيا والآخرة**﴾.[1]

وحسب ما قاله النبيّ الأكرم ﷺ:

«**مَن آذى عَليّاً فقَد آذاني**»[2]، و «**فاطِمَةُ بَضعَةٌ مِنّي، فَمَن آذاها فَقَد آذاني**».[3]

وكيف يمكن للمرء أن يسمع اللعن الصريح والقاطع للقرآن

١- الأحزاب: ٥٧.

٢- *بحار الأنوار*، ج ٥، ص ٦٩.

٣- نفسه، ج ٣٦، ص ٣٠٧.

الكريم، ويتصفّح التاريخ المؤلم والمفجع لشهادة سيّدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام ولا يموت كمداً، ولا يحترق من لوعة الحادث، ولا يُحلّ لعناته الأبدية على الظالمين، ولا ينتظر يوم الانتقام على أحرّ من الجمر؟! وهل يمكن ذلك؟!

الولاية الباطنية والولاية الظاهرية

الصيغة الثانية من اللعن: «**ولَعنَ الله أُمّةً دفَعَتكُم عَن مقامِكُم وأزالَتكُم عَن مَراتِبكُمُ التي رتّبَكُمُ الله فيها**». إنّ هذا المقطع من زيارة عاشوراء يشير بالبنان إلى مَن أزاح الأئمّة المعصومين عليهم السلام عن منصبهم الحقّ. وهنا يمكن أن تسأل: هل يمكن لأحد أن يزيحهم عن مقامهم ومنصبهم؟

وفي مقام الجواب نقول: إنّ كافّة الأئمّة المعصومين ـ بدءاً من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وانتهاءً إلى إمام زماننا «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» ـ لهم مقامان ساميان؛ هما: الولاية الباطنية والولاية الظاهرية.

وعلى صعيد مقام الولاية الباطنية ليس لأحد القدرة على التحكّم والتصرّف بها إلا الله تبارك وتعالى. فالولاية الباطنية منصب حقيقيّ مثبّت منذ الأزل وسيبقى حتّى الأبد، ولا يمكن لأيّ أحد أن ينحّي أولئك العظام عن مقامهم هذا.

ولكنّهم عليهم السلام لهم ولاية أخرى تحمل عنوان الولاية الظاهرية التي هي منصب الحكومة والإمامة بالناس. إنّ الشيعة يرون

ـ خلافاً لما يذهب إليه أهل السنّة ـ أنّ الله تبارك وتعالى نصّب أمير المؤمنين وأبناءه المعصومين عليهم السلام في مقام الولاية الظاهرية، هذا فضلاً عمّا خصّهم به من الولاية الباطنية. على أنّ تحقّق الولاية الظاهرية التي هي من شؤون الأئمّة الأطهار عليهم السلام رهن ببيعة الناس، أي أنّ الحكومة والإمامة لا تقع بيد أهل البيت عليهم السلام طالما لم يهيّئ الناس الظروف اللازمة لتحقّقها. لقد شاءت الإرادة الإلهية أن تودع الحكومة وقيادة الأمّة أهل بيت الرسالة عليهم السلام، ذلك لأنّهم وحدهم من تجلّت فيهم الأهلية للقيادة، وكان باستطاعتهم أن يوصلوا كافّة أبعاد الحياة البشرية إلى مرتبة الكمال، ويبلغوا بالناس إلى سعادة الدنيا والآخرة. لكنّ الأمّة التي تطرقّت إليها زيارة عاشوراء في هذا المقطع هي مجموعة وقفت في مقابل الإرادة الإلهية، وحرمت بالتالي جميع الناس من هذه النعمة الكبيرة.

مأساة البشرية العظمى

وحينما يطالع الإنسان التاريخ بشيء من الإنصاف وبدون أحكام مسبقة، يشعر في كلّ ناحية منها بمرارة هذه الواقعة، فلا يتوانى عن الإمعان في توجيه اللعن إلى مسبّبيها. وهذا اللعن ليس إلا للظلم الذي ارتكبوه بحقّ المجتمع البشريّ. ولنسمح لأنفسنا بالتفكير، إن سمح أولئك الجهلاء ممّن لم يكن لهم دين بتحقّق الولاية الظاهرية للأئمّة المعصومين عليهم السلام، فكيف كان حال

البشرية اليوم؟ إن سمحوا بأن يتسلّم أمير المؤمنين وأبناؤه زمام الأمور بعد الرسول الأكرمﷺ مباشرة، وأقاموا الحكومة الإسلامية، وواصل كلّ واحد منهم طريق سلفه، فإلامَ كان مآل البشرية اليوم؟

نعم، ما أعظم الفيض الذي كان ينهل منه المسلمون فيما لو بقي أمير المؤمنين الإمام عليّعليه السلام على دفّة الحكم! أليس هو القائل من على منبر العلم والمعرفة: «سَلُوني قبلَ أن تفقِدوني، فوالله إنّي لأعلَمُ بطرُق السّماواتِ مِنّي بطُرق الأرضِ، فإنَّ عندي عِلمُ الأوّلينَ والآخِرينَ»؟ لقد سار في رعيّته بالعدل حتّى قيل: إنّه قُتِل لشدّة عدله. وساوى بين أفراد رعيّته، حتّى استطاع رغم قصر حكومته وتكالب المؤامرات والفتن ضدّه، أن يوجد ظروفاً معيشية لكافّة الناس، وقد شهد له التاريخ أنّه وفّر لمواطنيه الغذاء والسكن وفرص العمل الكريمة.

ولا شكّ أنّ العالم اليوم ما كان ليحيد عن الإمام عليّعليه السلام تحت مظلّة التعليمات الإلهية ومعارف أهل البيتعليهم السلام، ولعمّ العدل أنحاء العالم، ولما تبقّى شيء من حالة القهقرى الاقتصادية والاجتماعية، ولما عانى إنسان القرن الحادي والعشرين من هذا الفقر والتميز والفساد والحرب والجريمة وإراقة الدماء والجهل.

ولك في مثل الوضع القائم أن تحكم بشأن مدى الجريمة التي ارتكبوها ضد المجتمع البشري. إنّهم لم يبعدوا أهل بيت الرسالةعليهم السلام عن الولاية الظاهرية فحسب، وإنّما عمدوا إلى عزل

الشيعة الذين كانوا ينهلون من فيض علوم المعصومين عليهم السلام. ولعلّ من نافلة القول: إنّ الشيعة كانوا أكثر الناس ظلامة عبر التاريخ، فلم ينجوا من الأذيّة والتعذيب والملاحقة منذ البداية، وعاشوا في عزلة يتهدّدهم الخطر من كلّ حدب وصوب. بل لم يستطيعوا الظهور إلى الساحة سوى في مقاطع زمنية محدودة، واضطرّوا إلى العيش في الخفاء في حُقُب عديدة.

وعمدوا في غير مرّة إلى تخريب وهدم الحرم الطاهر لسيّد الشهداء عليه السلام الذي كان ملاذاً للشيعة، وفتحوا عليه الجداول والأنهار في محاولة لإغراقه. وقتلوا كلّ مَن يُجري اسم الحسين عليه السلام على لسانه، أو مَن يذهب إلى زيارته. ولم يخلد الشيعة إلى الراحة إلا في العقدين الأخيرين من القرن الماضي وما بعدهما، وذلك ببركة وجود الإمام الخميني قدس سره حيث صار للشيعة حكومة ودولة في هذا العالم الكبير، وباتوا مصدر إلهام للتطوّر والتحوّل. ولو كانت الحكومة بيد الصالحين منذ صدر الإسلام لما كنّا اليوم متأخّرين عن ركب التمدّن إلى هذا الحدّ، ولما كنّا نعاني هذا القدر من المشاكل في النظام القضائيّ والسلطة التشريعية والأجهزة التنفيذية.

وهل وجد الشيعة عبر التاريخ فرصة لإقامة نظام سياسيّ إسلاميّ؟ ومتى استطاعوا أن يسيطروا على نظام إعلاميّ قويّ؟ ومتى استطاعوا التأسيس لنظامهم الاقتصاديّ؟ هؤلاء الجهلة الذين نلعنهم في زيارة عاشوراء تسبّبوا في تخلّف البشرية على

مدى أكثر من ألف وأربعمائة عام. وليس اللعن هذا مجرّد مشاعر عاطفية، بل هو براءة عميقة ومتجذّرة. إنّهم قتلوا الفضيلة، وصفعوا وجه الكرامة، وكمّموا أفواه العلم، وضحّوا بتسامي ورفعة البشرية. وشِرذمة قليلة من الأفراد تسبّبوا بكافّة المشاكل القائمة في مختلف أنحاء العالم، وإنّنا كلّما اطّلعنا على الحقائق أكثر، كلّما ازداد كُرهنا لهم وسخطنا عليهم.

تصوّرات واهية أم عقائد متجذّرة؟

ربما يتصوّر مَن يطالع السطور المتقدّمة أنّ رؤية الكاتب لحكومة حكّامها الأئمّة المعصومون عليهم السلام متأتّية من مجرّد تصوّراتٍ بعيدة عن الواقع أو على الأقّل متفائلة. ولكن مطالعةً ـ ولو بشكل عابر ـ لسيرة وسلوك النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام تقود إلى أنّ المواضيع الآنفة الذكر إنّما هي عقائد متجذّرة في العمق. إنّ دراسة مدّة الحكم القصيرة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعليّ ابن أبي طالب عليه السلام وكذلك مراحل الحياة الظاهرية للأئمّة المعصومين عليهم السلام تقنعنا بأنّ حكومتهم لو استمرّت لكانت البشرية اليوم أفضل بكثير ممّا هي عليه اليوم.

قَدِم طبيب نصرانيّ المدينة المنوّرة، وبعد مدّة من الإقامة فيها جاء إلى نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسأله عن سرّ عدم ابتلاء أهالي المدينة بالمرض، فأجابه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: عمل أهل المدينة بعدد من وصاياي فلم يمرضوا؛ يأكلون الملح قبل الأكل وبعده،

ولا يُقبلوا على الأكل إلا بعد أن يجوعوا ثمّ يرفعون أيديهم عن الطعام قبل أن يشبعوا.

وفي زمن حكومة الإمام عليّ عليه السلام، رفع يهوديّ الدعوى عليه لدى القاضي، فحضر حاكم البلاد الإسلامية عند القاضي وجلس إلى جوار اليهوديّ، فناداه القاضي بإمرة المؤمنين، فقال له عليه السلام بأن يناديه باسمه كما نادى اليهوديّ باسمه.

ومرّ الإمام الحسن عليه السلام بهيبته ومنزلته السامية ذات يوم بزقاق إذ وجد حزمة من الشوك وسط الطريق، فنزل من على فرسه ونحّاها عن الطريق، وقال: من واجبي أن أفسح الطريق للناس.

وقدِم عامل إلى الإمام الحسين عليه السلام يسأله مالاً ليقضي به دينه، فأعطاه الإمام الحسين عليه السلام عصا وقال له: اكتب حاجتك على الأرض. فسُئل عن حكمة ذلك، فقال عليه السلام: لا أريد أن أرى ذلّ السؤال على وجهه حينما يطلب حاجته.

وحينما رحل الإمام السجّاد عليه السلام عن الدنيا، كان على جسده الشريف جرحان؛ أحدهما في رقبته، حيث ظلّ أثر سلاسل الأسر حتّى بعد مرور عشرات السنين، والثاني في كتفيه بسبب حمل أكياس الخبز والتمر التي كان يوصلها سرّاً وفي عتمة الليل إلى الفقراء واليتامى.

والخامس من أئمّتنا عليهم السلام، الإمام الباقر عليه السلام، فرغم القيود والضغوط التي كان يمارسها الغاصبون للخلافة، إلا أنّه عليه السلام استطاع وفي برهة زمنية قصيرة أن يؤسّس للعلم والمعرفة مناراً

لا زال العلماء والمفكّرون المسلمون ورغم توالي القرون، يستنيرون بنوره ويهتدون به، ويجمعون عن يقين على أنّه «باقر العلوم».

أمّا الإمام السادس من أئمّتنا الميامين عليهم السلام؛ الإمام الصادق عليه السلام، فإنّ نشاطاته لم تقتصر على العلوم والمعارف الإسلامية، بل خرّج تلامذة أعاظم في سائر الفروع العلمية من قبيل الطبّ والكيمياء والفيزياء والبيئة والنجوم، حيث تلمذ عنده علماء كبار كجابر بن حيان وابن الهيثم والمفضّل بن عمر، وصار كلّ منهم مؤسّساً للعديد من الفروع العلمية في زمانهم. وبذلك جسّد كلّ واحد من أئمّة الشيعة عليهم السلام آية في العلم والحكمة والرحمة واللطف الإلهيّ.

في حين اعترف الآخرون في المقابل بحاجتهم إلى الأئمّة عليهم السلام، فالخليفة الأوّل كان يلجأ إلى الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بمجرّد أن تتأزّم الأمور. أمّا الخليفة الثاني فقد اعترف مراراً وتكراراً أنّه «لولا عليّ لهَلكَ عمر». وفي ذروة محنة الخليفة الثالث، وحينما أعياه الجوع والعطش بسبب الحصار، سارع الإمام عليّ عليه السلام إلى إنقاذه من الموت.

وكان الإمام عليّ عليه السلام يسلّم حتّى على الأطفال ويحملهم على كتفيه، ويردّ على أسئلة الناس بوجه بشوش وبمحبّة، بيد أنّه في المقابل عندما سئل الخليفة الثاني عن تفسير آية من الذكر الحكيم ولم يستطع الردّ على السؤال ضرب السائل بغمد السيف

حتّى سال الدم منه وولّى منه هارباً.

لقد روى التاريخ وقائع مرّة عن حقيقة جهلهم، وما الكتب المتعدّدة لأهل السنّة إلا مسرد لزوايا مختلفة من هذه الحقبة المظلمة من حياة البشرية.

اللعن عن بصيرة

يريد منّا الإمام الحسين عليه السلام أن نلعن أعداءه وأعداء الدين لعن المدرك والواعي والفاهم؛ لا بدافع التعصّب الأعمى ومجرّد عاطفة وإحساس. إنّ سلامنا على سيّد الشهداء عليه السلام يكون أجلّ شأناً، ولعننا لأعدائه أعظم أجراً فيما لو كانا منبثقين عن وعي وفهم للجذور التاريخية لواقعة كربلاء.

إنّ البحث بدقّة وتمحيص وعن وعي دون مجانبة الإنصاف يؤول بالمرء إلى أنّ كافّة البلايا والمصائب والجهل والفتن والحروب والتخلّف والفقر والجرائم تمتدّ جذورها إلى شورى السقيفة. تلك «الأمّة الشيطانية» المؤسّسة للظلم غيّرت مسيرة التاريخ وحرمت البشرية برمّتها من الخير والسعادة إلى يوم القيامة.

نبذ الطاغوت وتمسّك بالحسين

يعدّ هذا اللعن الذي هو بمعنى البراءة والسخط الباطنيّ، الخطوة الأولى باتّجاه الإمام الحسين عليه السلام، شأنه شأن الكفر بالطاغوت الذي يعتبر مقدّمة للإيمان بالله تعالى. يقول عزّ من

قائل في الآيـة ٢٥٦ مـن سـورة البقـرة المباركـة: ﴿**فَمَـن يَكفُـر بالطّاغوتِ ويُؤمِن بالله فقدِ استمسَكَ بالعروة الوُثقى**﴾. بمعنـى أنّ التبرّي من الطاغوت ضرورة من ضرورات تحقّق الإيمان. فهذان الجناحان يمكن أن يحلّق بواسطتهما الإنسان في سـماء «**العـروة الوثقى**»، وكلّما ازداد الكفر بالطاغوت كلّمـا تعـزّز الإيمـان بـالله تعالى.

وعبـارة «**لا إلـه إلا الله**» تمثّـل الخطـوة الأولـى علـى طريـق التوحيد؛ ينبغي فـي البدايـة نفـي الإلوهيـة عـن غيـر الله تبـارك وتعالى، ومن ثم حثّ الخطى وبثبات نحو قلعة التوحيد الرصينة، بل لو اعتقد المرء بـ«لا إله» لترعرع على العبودية «لله» تعالى.

وحتّى في عالم المادّة وعالم الأجسام، إذا أردت أن تنظر إلى اتّجاه واحد فعليك أن تشيح بوجهك عن الطرف المقابل. وحينما تولّي وجهك صوب الشمال فلا شكّ أنّ ظهـرك سـيكون باتّجـاه الجنوب. وبنفس المعنى يكون الانقلاب، فعبارة «**انقلب الرجـل**» تفيد بأنّه عاد إلـى حالـه الـذي كـان عليـه. هـذا فـي الانقـلاب الظاهريّ، لكنّ هنـاك انقلابـاً باطنيـاً، وهـو يحـوّل روح ونفـس الإنسان من حال إلى حال آخر.

ويشير القرآن الكريم في قصّـة النبـيّ موسـىعليه السلام إلـى هـذه الحقيقة، وذلك حينما يخبرنا باجتماع السحرة بـأمر مـن فرعـون وقيامهم بسحر أعين الناس، حتّـى بـدت الحبـال كأنّهـا حيّـات تسعى. حينئذ أمر الله تعالى نبيّه موسـىعليه السلام برمـي عصـاه علـى

الأرض، فتحوّلت إلى ثعبان ابتلع كافّة تلك الحيّات. وعندما رأى السحرة المعجزة الإلهية رغبوا عن عبادة فرعون وآمنوا بالنبيّ موسى عليه السلام. بمعنى أنّ انقلاباً باطنيّاً حصل لديهم عندما أيقنوا أنّ فعل موسى عليه السلام ليس من جنس السحر والشعوذة.

فما كان من فرعون إلا أن توعّدهم بأليم العذاب، فردّوا عليه أن «**لا ضَيْرَ**»، وافعل ما يحلو لك. إنّه موقف يثير الدهشة بحقّ ويدعو إلى التأمّل. إذ ما الذي دفع بهؤلاء فجأة إلى الوقوف بكلّ رجولة وصلابة أمام تهديدات فرعون، وصرّحوا بالإيمان بالله تعالى ونبذ عبادة فرعون؟ وهذا الإيمان الصارخ استند في الواقع إلى عبارة «**إنّا إلى ربِّنا مُنقَلِبونَ**»، أي أنّ الرجوع إلى الله تعالى يستلزم بالضرورة الرغبة عن فرعون.

وبعبارة أخرى ينبغي للزائر المستقبل لسيّد الشهداء عليه السلام أن يكون مولّياً بوجهه عن أعدائه. فالسبب في عدم وصول كثير من السلام إلى أبي عبد الله عليه السلام هو أنّ الزائر لم يُدبر بعد عن يزيد. وإن لم تلامس يد كثير من الزوّار الوجود المقدّس لأبي عبد الله عليه السلام فذلك لأنّ أيديهم لم تزل بيد يزيد. وقد يردّد اللسان: «**السلامُ علَيكَ يا أبا عَبدِ الله**»، لكنّه يزيديّ في قلبه. وهذان الضدّان لا يمكن أن يجتمعا يوماً. وكلّ من ابتعد عن يزيد خطوة اقترب بنفس المقدار من الإمام الحسين عليه السلام.

ولو لم يحصل ذلك لابتلى الشخص في داخله بالنفاق؛ أو بات ممّن يخدع نفسه أو يخدع الآخرين. ومن هنا تبرز أهميّة

تأكيد اللعن في زيارة عاشوراء، حيث ينبغي للزائر أن يحدّد موقفه، ويفصح عن موقفه وإلى أيّة جبهة ينتمي.

اللعن والبعد التربويّ الفرديّ والاجتماعيّ

إنّ لعن أعداء الإمام الحسين عليه السلام مؤثّر في حلّ المشاكل الشخصية للإنسان، إذ هذا الأمر يكشف عن وجود صلة بين اللعن وبين آثاره على الفرد ومن ثمّ المجتمع. وفي حقيقة الأمر أنّ اللعن يحدّد تكاليف الإنسان في البعدين الفكريّ والعمليّ. فالحقيقة الأولى التي علينا تحديد موقفنا منها هي «النفس الأمّارة». فطالما لم يستطع الإنسان من التفوّق على صراعه الداخلي مع النفس وشهواتها، فإنّه لن يحقّق النصر في كفاحه الظاهري ضدّ الكفر والطاغوت.

فهذا الانتصار الشخصيّ والداخليّ مقدّمة للنجاح على الصعيد الاجتماعيّ. فمن ينتصر على نفسه الجامحة والمحبّة للمال والراغبة في الدعة والراحة، يمكنه أن يضرب فسطاطه في معسكر الإمام الحسين عليه السلام. إنّ اللعن المشفوع بالبصيرة من شأنه أن يقوّم مسيرة مجتمعاتنا المعاصرة. بل ينبغي للزائر أن يلبّي اليوم وبما تستلزمه الظروف المحيطة نداء «**هَل مَن ناصر يَنصُرُني**».

وعلى الزائر أن يكون على أهبة الاستعداد في كلّ الأبعاد؛ يهذّب أخلاقه، يحترف مهنة ويتخصّص فيها، ويعزّز قدراته

لخدمة الدين، وينهمك في المطالعة والتدبّر. فالإمام الحسين عليه السلام يريد مرافقاً واعياً ومؤهّلاً. وبمختصر العبارة ينبغي أن يكون زائر الإمام الحسين عليه السلام في هذا الزمان على نمط يفتخر به إمام العصر والزمان المهديّ المنتظر «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» أمام الله تبارك وتعالى بامتلاكه جنديّ كهذا.

واللعن التالي في الزيارة ينصّ على: «**وَلَعَنَ اللهُ أُمَّةً قَتَلَتكُم، وَلَعَنَ اللهُ المُمَهِّدينَ لَهُم بالتَّمكِينِ مِن قِتالِكُم**».

وواضح أنّ اللعن في هذه العبارة يشمل مَن شارك في قتل سيّد الشهداء عليه السلام مباشرة، ومَن هيّأ الظروف السياسية والثقافية والاقتصادية والدعائية لهذه الواقعة.

الخزي والعار

بعد أن تطلق زيارة عاشوراء اللعن على كافّة أعداء الإمام الحسين عليه السلام، تعمل على فضح المتسبّبين في تلك المأساة، فتذكر أسماءهم الواحد بعد الآخر وتلعنهم.

وأوّل من يشمله اللعن «آل زياد». و«زياد» هو أبو عبيد الله، والمعروف باسم «**زياد ابن أبيه**» أو «**زياد ابن أمّه**». وسمّي بزياد ابن أبيه لأنّه لم يُعرف من هو أبوه. وفي الأساس لم يكن لأيّ ممّن شارك في قتل سيّد الشهداء عليه السلام أصل ونسَب. ولقد شهد المؤرّخون أنّ زياد وابنه عبيد الله هما ابنا حرام. وهكذا «**ابن مرجانة**» الذي كان يعرف باسم أُمّه ولم يُعرف أبوه، وقد لُعِن في

الزيارة على نحو الخصوص.

ثمّ يطال اللعن «آل مروان»، ومروان هو ابن الحَكَم، والحكَم هو ابن أبي العاص، وأبو العاص هو ابن أُميَّة المعروف بـ «**ابن الطّريد**» بعد أن طرد النبيّ الأكرمﷺ أباه. وقد أطلق الناس عليه وعلى آله اسم «الوزغ». وعُرف مروان بأنّه أكثر الناس حقداً على دين الله تعالى ورسوله الأكرم وأمير المؤمنين «صلوات الله وسلامه عليهما»، وقد ذاع عداؤه لأهل بيت النبيّﷺ كما اشتهر بمواقفه المعادية لأمير المؤمنينعليه السلام.

تمّ على عهد نبيّ الإسلامﷺ إبعاده وعزله، لكنّه عاد إلى الحضيرة الاجتماعية في زمن عثمان. لقد قام الخليفة الثالث من جهة بنفي الصحابي الجليل «أبي ذرّ الغفاريّ» إلى صحراء الربذة الملتهبة وآذاه حتّى نال الشهادة، ومن جهة أخرى أعاد إلى المدينة المنوّرة من طُرِد في زمن النبيّ الأكرمﷺ وقرّبهم منه وأعزّهم وقلّدهم المناصب في حكومته. وكان الحَكَم (أبو مروان) عمَّ عثمان، وهذه الصلة العائلية دفعت بالأخير إلى الإغداق عليهم ممّا في بيت المال، وتوزيع المناصب الحكومية عليهم، رغم ما سُمع من رسول اللهﷺ في لعنهم، وما شاع عنهم من الكفر والنفاق بين الناس.

ولم تكتف الزيارة الشريفة بهذا القدر من اللعن، وإنّما حلّ اللعن على كلّ بني أُميَّة «**وَلعَنَ الله بني أُميَّة قاطِبةً**». وبنو أُميَّة هم كافّة أبناء وأحفاد أُميَّة. وقد تفرّع من صلب أُميَّة جيلان؛ أحدهما

من ابنه «أبي العاص»، والآخر من ابنه «حرب»، وكلاهما ابن سفاح، حسبما صرح بذلك مؤرّخو أهل السنّة. وهذه العائلة كانت خبيثة ووضيعة، حتّى أنّ القرآن الكريم عبّر عنها بـ «الشجرة الملعونة»: **«وَما جَعلنا الرُّؤيا التى أريناكَ إلّا فِتنَةً للناسِ وَالشّجَرةَ المَلعُونةَ فى القُرآنِ ونُخوِّفُهُم فَما يَزيدُهُم إلّا طُغياناً كَبيراً»**.[١]

يقول الفخر الرازي ـ وهو من كبار علماء أهل السنّة ـ في تفسيره «الكبير» بشأن هذه الآية: «قال سعيد بن المسيّب: رأى رسول الله صلّى الله عليه (وآله) وسلّم بني أُميَّة ينزون على منبره نزو القِرَدَة، ..». بعد ذلك نزلت الآية الشريفة من سورة الإسراء المباركة. وبهذا الشكل عُرف بنو أُميَّة بالحقارة. وقد ورد عن ابن عبّاس بصريح العبارة: أنّ الشجرة بنو أُميَّة.

علماً أنّ هناك إجماعاً من الشيعة وأهل السُّنة على لعن بني أُميَّة، إلا مجموعة خاصّة من أهل السُّنّة. وفي الجزء الأخير من الآية الشريفة التي تعرّف بني أُميَّة بالشجرة الملعونة التفاتة ظريفة تحدّثت عنها بعض الروايات، فالله تبارك وتعالى يقول في آخرها: **﴿فَما يَزيدُهُم إلا طُغياناً كَبيراً﴾**، فلو اعتبرت مفردة «**يزيد**» فعلاً يكون معنى الآية الشريفة هو أنّ تهديد الله تعالى لهم لم ينجم إلا عن تمرّد وطغيان أكبر لهؤلاء. أمّا بعضهم

---

١ - الإسراء: ٦٠.

فذهب إلى أنّ «**يزيد**» ليس بفعل، وإنّما هو اسم خاصّ، والمراد به «**يزيد بن معاوية**». وهنا تعني الجملة أنّ يزيد طاغ كبير من بين بني أُميَّة. إنّ طغيانه وعصيانه كان من الكِبَر حتّى أنّ الله تعالى لم يسمّه بـ «الطاغي»، وإنّما أطلق عليه «الطغيان»، بصيغة المصدر، وكأنّ يزيد أساس وأصل العصيان والتمرّد. علماً أنّ هناك آيات أخرى في القرآن الكريم تتضمّن لعن بني أُميَّة.

ونواصل قراءة زيارة عاشوراء فنصل إلى عبارة «**وَ لعَنَ الله ابنَ مرجانَةَ**»، ابن مرجانة هو نفسه ابن زياد الذي لعنّاه في البداية مع «آل زياد» وهم عائلة أبيه. لكنّ الزيارة الشريفة تشير إليه في هذا المقطع بواسطة أمّه، وكانت «**مرجانة**» امرأة بغيّة سيّئة الصيت، اشتهرت بين الناس بالبغاء والفحشاء والفجور.

كم يعتصر الألم الإنسان حينما يرى مثل هؤلاء الأشخاص المولودين لمثل هؤلاء الآباء والأمّهات يقفون في مقابل أبناء رسول الله ﷺ وهذا المعنى نلحظه في كلام سيّد الشهداء عليه السلام عندما خطب في يوم عاشوراء قائلاً: «**ألا وإنَّ الدعيَّ ابنَ الدعيَّ قَد رَكزَ بَينَ اثنَتين؛ بَينَ السِّلَّة وَ الذِّلَّة، وهَيهاتَ مِنّا الذِّلَّة، يأبى الله لنا ذلكَ ورَسُولُهُ والمؤمِنونَ، وحُجورٌ طابَت وطَهُرَت، وأُنوفٌ حميَّةٌ ونُفوسٌ أبيَّةٌ مِن أن تُؤثِرَ طاعَةَ اللّئام على مَصارِعَ الكِرامِ ..**».[١] وما جاء في بعض الروايات من تأكيد لعن بني أُميَّة بعد الصلاة فإنّما

١- *اللهوف في قتلى الطفوف*، ص ٩٧.

بسبب لعن هذه الشجرة على لسان الوحي المقدّس في القرآن الكريم.

ونصل إلى «**وَلعَنَ الله عُمَرَ بنَ سعدٍ**»، وعمر هذا هو ابن سعد ابن أبي وقّاص، الذي حارب سيّد الشهداء عليه السلام، وباع آخرته طمعاً بحكومة «الريّ»، ثمّ لم يحظ بها، فخسر الدنيا والآخرة.

وبعده يأتي دور الشمر بن ذي الجوشن باللعن: «**وَلعَنَ الله شِمراً**»، والشمر لقب شخص اسمه «شرحبيل»، أبوه كان رجلاً قويّاً عظيم الجثّة، لم يؤمن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وظلّ على كفره.

أما ابنه شمر فقد أظهر الإيمان وانضمّ إلى جيش أمير المؤمنين عليه السلام في معركة صفّين. وقد عُرف منذ واقعة الطفّ بأنّه المرتكب لأكبر وأبشع جريمة عرفها التاريخ. وما برز منه من وقاحة وصلف لم يبرز من أحد لا من قبله ولا من بعده. وإن كانت الأمم السابقة قد قتلت الأنبياء عليهم السلام، وإن أقدم الظلَمة فيما بعد على قتل أئمّة الشيعة عليهم السلام، فهو الذي «لعنه الله» جلس على الصدر المبارك لسيّد شباب أهل الجنّة عليه السلام، وقطع رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

ونواصل قراءة الزيارة الشريفة فنصل إلى «**وَلعَنَ الله أُمّةً أسرَجَت وألجَمَت وتَنقّبت لِقتالِكَ**». ورغم أنّه تمّ في المقاطع السابقة من زيارة عاشوراء إطلاق اللعن بنحو العموم على كلّ من هيّأ وأعدّ ومهّد الأرضية لواقعة كربلاء، لكنّه في هذا المقطع

يطال اللعن على نحو التحديد صنوفاً مختلفة من جيش العدوّ بمن فيهم من وضع السروج على الخيول وألجم أفواهها ومَن أوقد للحرب.

وإنّ أنماط اللعن هذه أعقبها تأكيدات بتبرّي الزائر في عدد من العبارات من كافّة أعداء أهل البيت عليهم السلام، ثمّ تسمية يزيد بـ «**اللعين ابن اللعين**»، وبعدها عبارة «**اللّهُمَّ العَن أبا سُفيانَ ومُعاويَةَ ويَزيدَ بنَ مُعاويَةَ علَيهم مِنكَ اللعنَةُ أبَدَ الآبدينَ**».

وعند ذلك نصل إلى اللعن الخاصّ الذي ينبغي حسب الرواية قراءته مائة مرّة، وهو نصّ جامع وكامل يحلّ اللعن فيه على كافّة الظلَمة «**اللهُمَّ العَن أوّلَ ظالِمٍ ظلَمَ حَقَّ مُحمَّدٍ وآلِ مُحمَّدٍ وآخِرَ تابعٍ لَهُ على ذلِكَ، اللهُمَّ العَنِ العِصابَةَ التي جاهَدَتِ الحُسينَ وَشايَعَت وبايَعَت وَتابَعَت على قَتلِه، اللهُمَّ العَنهُم جَميعاً**».

وفي ختام الزيارة، يرد لعن فيه تخصيص من حيث المصدر ومن حيث هويّة الملعون، وهو ينصّ على:

«**اللهُمَّ خُصَّ أنتَ أوّلَ ظالِمٍ باللعنِ مِنّي، وَابدَأ بِهِ أوّلاً ثُمَّ الثانِيَ والثّالِثَ والرّابِعَ، اللهُمَّ العَن يَزيدَ خامِساً، وَالعَن عُبَيدَ الله بنَ زيادٍ وابنَ مَرجانَةَ وعُمَرَ بنَ سَعدٍ وشِمراً وآلَ أبي سُفيانَ وآلَ زيادٍ وآلَ مَروانَ إلى يَومِ القِيامَةِ**».

وبالرغم من ورود اللعن في زيارة عاشوراء على ظالمي أهل البيت عليهم السلام بنحو العموم، وكذلك التطرّق إلى أشخاص بعينهم في مقاطع أخرى، لكنّها تعيد الكرّة في نهايتها لتُحِلّ اللعن على كلّ

واحد من أولئك الظلَمة وآلهم.

إنّ مفردة «خُصَّ» في بداية المقطع تُنمي إلى أذهاننا مفهوماً دقيقاً، فهذه الكلمة واردة بصيغة فعل الأمر على المخاطب، وهي تضمر في معناها الضمير «**أنت**» في موقع الفاعل المستتر. ولكنّ هذا الفاعل «أنت» يأتي بعد فعل الأمر بمعنى وبهدف التأكيد.

وكأنّ الزائر يريد أن يقول: إن لم أكن في ذلك الزمان لأضحّي بروحي فداءً لعليٍّ وأبنائه عليهم السلام، فسجّل لي يا ربّ هذا اللعن منّي حتّى يقوم المنتقم الحقيقيّ وأشهر سيفي وأنتقم لهم.

عذاب فوق العذاب

فضلاً عن صيغ العذاب الأليم التي أعدّها الخالق الجبّار لأعداء الإمام الحسين عليه السلام، فإنّه يزيد في عذابهم عبر كلّ من هذه اللعنات التي يردّدها الزائر. وبالقدر الذي تزيد هذه اللعنات من درجات إيمان الزائر وترفع مراتبه المعنوية في الجنّة، فإنّها تكون بنفس النسبة بمثابة جهنّم جديدة وعذاب جديد لأولئك الخبثاء.

لقد تضمّنت روايات الأئمّة المعصومين عليهم السلام تعابير مختلفة، تعكس شدّة العذاب الإلهي لأولئك الظالمين. من قبيل أنّهم وَقود نار جهنّم؛ النار التي هي بمقدار سبعين مرّة من النار التي يسجّرها الإنسان على الأرض، النار التي لو أنّ مثل خرق إبرة خرج على أهل الأرض لاحترقوا عن آخرهم. وفي رواية أنّه حينما يراد زيادة لهيب نار جهنّم يُعمد إلى فتح باب تابوت

أولئك الظلَمة للحظة. إنّنا لا نستوعب هذه الروايات إلا المعـاني السطحية، والله سبحانه وتعالى وحده الذي يعرف ماهيّة العـذاب الأبديّ لهؤلاء.

زيارة عاشوراء

اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا اَبا عَبْدِ الله، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ رَسُولِ الله، (السَّلامُ عَلَيكَ يا خِيَرَةَ الله وابْنَ خِيَرَتِه)، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ اَميرِ الْمُؤْمِنينَ وَابْنَ سَيِّدِ الْوَصِيّينَ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يَا ابْنَ فاطِمَةَ سَيِّدَةِ نِساءِ الْعالَمينَ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا ثارَ الله وَابْنَ ثارِهِ وَالْوِتْرَ الْمَوْتُورَ، اَلسَّلامُ عَلَيْكَ وَعَلَى الأرواحِ الَّتي حَلَّتْ بِفِنائِكَ، عَلَيْكُمْ مِنّي جَميعاً سَلامُ الله أبَداً ما بَقيتُ وَبَقِيَ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ.

يا اَبا عَبْدِ الله لَقَدْ عَظُمَتِ الرَّزِيَّةُ وَجَلَّتْ وَعَظُمَتِ الْمُصيبَةُ بِكَ عَلَيْنا وَعَلى جَميعِ اَهْلِ الإسْلامِ، وَجَلَّتْ وَعَظُمَتْ مُصيبَتُكَ فِي السَّماواتِ عَلى جَميعِ اَهْلِ السَّماواتِ، فَلَعَنَ اللهُ اُمَّةً اَسَّسَتْ اَساسَ الظُّلْمِ وَالْجَوْرِ عَلَيْكُمْ اَهْلَ الْبَيْتِ، وَلَعَنَ اللهُ اُمَّةً دَفَعَتْكُمْ عَنْ مَقامِكُمْ وَاَزالَتْكُمْ عَنْ مَراتِبِكُمُ الَّتي رَتَّبَكُمُ اللهُ فيها، وَلَعَنَ اللهُ اُمَّةً قَتَلَتْكُمْ وَلَعَنَ اللهُ الْمُمَهِّدينَ لَهُمْ بِالتَّمْكينِ مِنْ قِتالِكُمْ، بَرِئْتُ اِلَى الله وَاِلَيْكُمْ مِنْهُمْ وَمِنْ اَشْياعِهِمْ وَاَتْباعِهِمْ وَاَوْلِيائِهِم.

يا اَبا عَبْدِ الله اِنّي سِلْمٌ لِمَنْ سالَمَكُمْ وَحَرْبٌ لِمَنْ حارَبَكُمْ اِلى

يَوْمِ الْقِيامَة. وَلَعَنَ اللهُ آلَ زياد وَآلَ مَـرْوانَ، وَلَعَـنَ اللهُ بَنـي أُمَيَّـةَ قاطِبَةً، وَلَعَنَ اللهُ ابْنَ مَرْجانَةَ، وَلَعَنَ اللهُ عُمَرَ بْـنَ سَـعْد، وَلَعَـنَ اللهُ شِمْراً، وَلَعَنَ اللهُ أُمَّةً أَسْرَجَتْ وَأَلْجَمَتْ وَتَنَقَّبَتْ لِقِتالِكَ.

بِأَبي أَنْتَ وَأُمّي لَقَدْ عَظُمَ مُصابي بِكَ، فَأَسْأَلُ اللهَ الَّـذي أَكْـرَمَ مَقامَكَ وَاَكْرَمَني (بِكَ) اَنْ يَرْزُقَني طَلَبَ ثارِكَ مَعَ اِمامٍ مَنْصُورٍ مِـنْ اَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، اَللّهُمَّ اجْعَلْني عِنْـدَكَ وَجيهـاً بِالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلامُ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.

يا اَبا عَبْدِ الله اِنّي اَتَقَـرَّبُ اِلـى الله وَاِلـى رَسُـولِهِ وَاِلـى اَميـرِ الْمُؤْمِنينَ وَاِلى فاطِمَةَ وَاِلَى الْحَسَنِ وَاِلَيْكَ بِمُوالاتِكَ وَبِالْبَراءَةِ (مِمَّنْ قاتَلَكَ وَنَصَبَ لَكَ الْحَرْبَ وَبِـالْبَراءَةِ مِمَّـنْ اَسَـسَّ اَسـاسَ الظُّلْـمِ وَالْجَوْرِ عَلَيْكُمْ، وَاَبْرَأُ اِلَى الله وَاِلى رَسُولِهِ) مِمَّنْ اَسَّسَ اَساسَ ذلِكَ وَبَنى عَلَيْهِ بُنْيانَهُ، وَجَرى فِي ظُلْمِهِ وَجَوْرِهِ عَلَيْكُمْ وَعلى اَشْياعِكُمْ، بَرِئْتُ اِلَى الله وَاِلَيْكُمْ مِنْهُمْ، وَاَتَقَرَّبُ اِلَى الله ثُمَّ اِلَـيْكُمْ بِمُـوالاتِكُمْ وَمُوالاةِ وَلِيِّكُمْ وَبِالْبَراءَةِ مِـنْ اَعْـدائِكُمْ وَالنّاصِـبينَ لَكُـمُ الْحَـرْبَ وَبِالْبَراءَةِ مِنْ اَشْياعِهِمْ وَاَتْباعِهِمْ، اِنّي سِلْمٌ لِمَنْ سـالَمَكُمْ وَحَـرْبٌ لِمَنْ حارَبَكُمْ وَوَلِيٌّ لِمَنْ والاكُمْ وَعَدُوٌّ لِمَنْ عاداكُمْ.

فَاَسْأَلُ اللهَ الَّذي أَكْرَمَني بِمَعْرِفَتِكُمْ وَمَعْرِفَةِ اَوْلِيـائِكُمْ، وَرَزَقَنـي الْبَراءَةَ مِنْ اَعْدائِكُمْ اَنْ يَجْعَلَني مَعَكُمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَاَنْ يُثَبِّتَ لي عِنْدَكُمْ قَدَمَ صِدْقٍ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ، وَاَسْأَلُهُ اَنْ يُبَلِّغَنِي الْمَقامَ الْمَحْمُودَ لَكُمْ عِنْدَ الله، وَاَنْ يَرْزُقَني طَلَبَ ثـاري مَـعَ اِمـامٍ هُـدىً ظاهِرٍ ناطِقٍ بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَاَسْأَلُ اللهَ بِحَقِّكُمْ وَبِالشَّـأْنِ الَّـذي لَكُـمْ

عِنْدَهُ اَنْ يُعْطِيَني بِمُصابي بِكُمْ اَفْضَلَ ما يُعْطي مُصاباً بِمُصيبَتِه، مُصيبَةً ما اَعْظَمَها وَاَعْظَمَ رَزِيَّتَها فِي الإسْلامِ وَفي جَميعِ السَّماواتِ وَالأَرْض!

اَللّهُمَّ اجْعَلْني فِي مَقامي هذا مِمَّنْ تَنالُهُ مِنْكَ صَلَواتٌ وَرَحْمَةٌ وَمَغْفِرَةٌ. اَللّهُمَّ اجْعَلْ مَحْيايَ مَحْيا مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمَماتي مَماتَ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ.

اَللّهُمَّ اِنَّ هذا يَوْمٌ تَبَرَّكَتْ بِهِ بَنُو اُمَيَّةَ وَابْنُ آكِلَةِ الأكبادِ، اللَّعينُ ابْنُ اللَّعينِ عَلى لِسانِكَ وَلِسانِ نَبِيِّكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في كُلِّ مَوْطِنٍ وَمَوْقِفٍ وَقَفَ فيهِ نَبِيُّكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. اَللّهُمَّ الْعَنْ اَبا سُفْيانَ وَمُعاوِيَةَ وَيَزيدَ ابْنَ مُعاوِيَةَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ اللَّعْنَةُ اَبَدَ الآبِدينَ. وَهذا يَوْمٌ فَرِحَتْ بِهِ آلُ زِياد وَآلُ مَرْوانَ بِقَتْلِهِمُ الْحُسَيْنَ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ، اَللّهُمَّ فَضاعِفْ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَ مِنْكَ وَالْعَذابَ (الأليمَ). اَللّهُمَّ اِنّي اَتَقَرَّبُ اِلَيْكَ فِي هذَا الْيَوْمِ وَفي مَوْقِفي هذا وَاَيّامِ حَياتي بِالْبَراءَةِ مِنْهُمْ وَاللَّعْنَةِ عَلَيْهِمْ وَبِالْمُوالاةِ لِنَبِيِّكَ وَآلِ نَبِيِّكَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ اَلسَّلامُ.

ثمّ تقول مائة مرّة:

اَللّهُمَّ الْعَنْ اَوَّلَ ظالِمٍ ظَلَمَ حَقَّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَآخِرَ تابِعٍ لَهُ عَلى ذلِكَ، اَللّهُمَّ الْعَنِ الْعِصابَةَ الَّتي جاهَدَتِ الْحُسَيْنَ (عليه السلام) وَشايَعَتْ وَبايَعَتْ وَتابَعَتْ عَلى قَتْلِهِ، اَللّهُمَّ الْعَنْهُمْ جَميعاً.

ثمّ تقول مائة مرّة:

اَلسَّلامُ عَلَيْكَ يا اَبا عَبْدِ اللهِ وَعَلَى الأرْواحِ الَّتي حَلَّتْ بِفِنائِكَ،

عَلَيْكَ مِنّي سَلامُ اللهِ اَبَداً ما بَقيتُ وَبَقِيَ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ، وَلا جَعَلَهُ اللهُ آخِرَ الْعَهْدِ مِنّي لِزِيارَتِكُمْ.

اَلسَّلامُ عَلَى الْحُسَيْنِ وَعَلى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَعَلى اَوْلادِ الْحُسَيْنِ وَعَلى اَصْحابِ الْحُسَيْنِ.

ثمّ تقول: اَللّهُمَّ خُصَّ اَنْتَ اَوَّلَ ظالِمٍ بِاللَّعْنِ مِنّي، وَابْدَأْ بِهِ اَوَّلاً ثُمَّ (الْعَنِ) الثّانيَ وَالثّالِثَ وَالرّابِعَ، اَللّهُمَّ الْعَنْ يَزيدَ خامِساً، وَالْعَنْ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ زِيادٍ وَابْنَ مَرْجانَةَ وَعُمَرَ بْنَ سَعْدٍ وَشِمْراً وَآلَ اَبي سُفْيانَ وَآلَ زِيادٍ وَآلَ مَرْوانَ اِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ.

ثمّ تسجد وتقُول:

اَللّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ حَمْدَ الشّاكِرينَ لَكَ عَلى مُصابِهِمْ، اَلْحَمْدُ للهِ عَلى عَظيمِ رَزِيَّتي، اَللّهُمَّ ارْزُقْني شَفاعَةَ الْحُسَيْنِ يَوْمَ الْوُرُودِ، وَثَبِّتْ لي قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَكَ مَعَ الْحُسَيْنِ وَاَصْحابِ الْحُسَيْنِ الَّذينَ بَذَلُوا مُهَجَهُمْ دُونَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلامُ .

أقرب من حبل الوريد

السجود لربّ العزّة هو حالة من الهيام بين الإنسان وبين ربّه، تنعدم فيها الواسطة، وتتلاشى فيها «الأنا» والعجب والاعتداد بالنفس. وفي الحقيقة أنّ الإنسان يعفّر بسجوده لله تعالى جبهته بالتراب ويخرق الحُجُب، فكيف بتلك السجدة إن كانت على حفنة من تراب كربلاء المقدّس؟ مثل هذه السجدة لا يعلم قدسيّتها إلا الله تبارك وتعالى. وتتّسم السجدة الواردة في زيارة

عاشوراء بآداب خاصّة. ويمكن القول: إنّه لا توجد لـدينا زيـارة غير عاشوراء (المعروفة وغير المعروفة) تحتوي على سجدة. إنّ سجدة زيارة عاشوراء هي عصارة كافّة الحاجـات. إنّهـا سـجدة تمثّل مظهر الابتعاد عن عبادة النفس والتقرّب إلى الله، إنّها درس في المعرفة والبصيرة. فبعد أن يسلّم الزائـر بكـلّ وجـوده علـى الإمام الحسين عليه السلام، وأصحابه الميامين عليهم السلام ويملأ الأجواء بمعاني التبـرّي مـن أعدائـه (فـي كـلّ زمـان ومكـان)، ويحـدّد هويّـة المؤسّسين لظلم آل محمّد صلى الله عليه وآله والممهّدين له وأتبـاعهم، ويعلـن انزجاره منهم، ويسأل الله أن يذيقهم نار جهنّم، يحلّـق بسـجوده لله في الآفاق الروحية والمعنويـة، وكأنّـه يقتـدي بـآخر سـجود لمولاه مناجياً ربّه بالشكر على ما قضت بـه إشـاءته رغـم عظـم المصاب: «**اَللّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ حَمْدَ الشّاكِرينَ لَـكَ عَلـى مُصـابِهِمْ، اَلْحَمْدُ للهِ عَلى عَظيمِ رَزِيَّتي، اَللّهُمَّ ارْزُقْني شَـفاعَةَ الْحُسَـيْنِ يَـوْمَ الْوُرُودِ، وَثَبِّتْ لي قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَكَ مَعَ الْحُسَيْنِ وَاَصْحابِ الْحُسَيْنِ الَّذينَ بَذَلُوا مُهَجَهُمْ دُونَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلامُ**».

عجباً! ما أعظم الحالة التي يعايشها الزائر! الحمد والشكر على المصيبة! نظرة توحيدية مطلقة لكلّ ما يشهده هذا العالم. ويعتبـر الزائر في هذه السجدة أنّ مصيبة إمامه عليه السلام هي مصيبته: «الحمد لله على عظيم رزيّتي». وعند ذلك فقط يتقدّم إليه بطلبـين؛ الأوّل: أن يكون في صفّ ممّن يشـفع لهـم الحسـين عليه السلام. والثـاني: أن يتّصف بما اتّصف به أصـحاب الحسـين عليه السلام فـي قـوّة العقيـدة

والثبات على الحقّ، وبعبارة أخرى كأنّه يطلب نيل الشهادة تحت راية الإمام الحقّ.

ما أحلاه من أمل؛ أمل «الشفاعة» و«الشهادة»!

إنّها النهاية السعيدة التي تتوّج هذا الشرح المختصر.

فهل لنا في هذا التتويج من نصيب؟ نرجو أن يكون ذلك بإذن الله تعالى.

والسلام على الشهداء والصدّيقين

عاشوراء بآداب خاصّة. ويمكن القول: إنّه لا توجد لدينا زيارة غير عاشوراء (المعروفة وغير المعروفة) تحتوي على سجدة. إنّ سجدة زيارة عاشوراء هي عصارة كافّة الحاجات. إنّها سجدة تمثّل مظهر الابتعاد عن عبادة النفس والتقرّب إلى الله، إنّها درس في المعرفة والبصيرة. فبعد أن يسلّم الزائر بكلّ وجوده على الإمام الحسين عليه السلام، وأصحابه الميامين عليهم السلام ويملأ الأجواء بمعاني التبرّي من أعدائه (في كلّ زمان ومكان)، ويحدّد هويّة المؤسّسين لظلم آل محمّد صلى الله عليه وآله والممهّدين له وأتباعهم، ويعلن انزجاره منهم، ويسأل الله أن يذيقهم نار جهنّم، يحلّق بسجوده لله في الآفاق الروحية والمعنوية، وكأنّه يقتدي بآخر سجود لمولاه مناجياً ربّه بالشكر على ما قضت به إشاءته رغم عظم المصاب: «**اَللّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ حَمْدَ الشّاكِرينَ لَكَ عَلى مُصابِهِمْ، اَلْحَمْدُ لله عَلى عَظيمِ رَزِيَّتي، اَللّهُمَّ ارْزُقْني شَفاعَةَ الْحُسَيْنِ يَوْمَ الْوُرُودِ، وَثَبِّتْ لي قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَكَ مَعَ الْحُسَيْنِ وَاَصْحابِ الْحُسَيْنِ الَّذينَ بَذَلُوا مُهَجَهُمْ دُونَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلامُ**».

عجباً! ما أعظم الحالة التي يعايشها الزائر! الحمد والشكر على المصيبة! نظرة توحيدية مطلقة لكلّ ما يشهده هذا العالم. ويعتبر الزائر في هذه السجدة أنّ مصيبة إمامه عليه السلام هي مصيبته: «الحمد لله على عظيم رزيّتي». وعند ذلك فقط يتقدّم إليه بطلبين؛ الأوّل: أن يكون في صفّ ممّن يشفع لهم الحسين عليه السلام. والثاني: أن يتّصف بما اتّصف به أصحاب الحسين عليه السلام في قوّة العقيدة

والثبات على الحقّ، وبعبارة أخرى كأنّه يطلب نيل الشهادة تحت راية الإمام الحقّ.

ما أحلاه من أمل؛ أمل «الشفاعة» و«الشهادة»!

إنّها النهاية السعيدة التي تتوّج هذا الشرح المختصر.

فهل لنا في هذا التتويج من نصيب؟ نرجو أن يكون ذلك بإذن الله تعالى.

والسلام على الشهداء والصدّيقين

الفهرس

توطئة ٣

الخيمة الأولى: أقسام الزيارة

(٧ـ٢٧)

زيارة إخوة الإيمان ٧
زيارة المؤمن إحياء للقلوب ٩
زيارة قبور المؤمنين والشهداء والصالحين ١٠
زيارة المراقد الطاهرة للأئمّة المعصومين عليهم السلام ١٠
المسؤولـيّة الثقيلة ١٢
حقيقة نورانية ١٣
زيارة قبور الأئمّة وحكمتها ١٤
الذكر ١٦
الصلاة ١٧
الحجّ ١٧
طواف على الأرض وسير في الأفلاك ١٨
ما أقرب المقصود! ٢٠
الزيارة مؤسَّسة ٢٢
ما المراد من المؤسّسة؟ ٢٢

زيارة عاشوراء منهجية معرفية وأخلاقية وسياسية ٢٤
ألف: معرفة الإمام ٢٤
ب: التربية الأخلاقية ٢٥
ج: التربية السياسية ٢٦

الخيمة الثانية: مائدة السماء

(٢٨ـ٤٦)

رواة أمناء ٢٨
ما هو السند؟ ٢٨
لماذا نناقش سند زيارة عاشوراء؟ ٢٩
أ: الوجود، كيان متناغم ٢٩
ب: السعادة والشقاء ٣٠
ج: من هو الذي يعرف؟ ٣٠
حقّ التقرير لمن؟ ٣١
مناقشة سند زيارة عاشوراء ٣٣
أهمّية وآثار زيارة عاشوراء ٣٦
ورقة ضمان من العرش ٣٧
درع الشجاعة ٣٩
نظرة عابرة إلى مضامين زيارة عاشوراء ٤٠
١. السلام تعبير عن محبّة خالصة ٤٠
٢. عاشوراء حسرة مفجعة ٤٠
٣. أحداث تاريخية مشؤومة ٤١
٤. اللعن المقدّس ٤٢

٥. إعلان الوفاء ٤٣
٦. الإفشاء ٤٤
٧. انتظار بلون الدم ٤٥
٨ . مع الحسين عليه السلام نحو الخلود ٤٦

الخيمة الثالثة: خطوات في روضة الشقائق
(٤٧ ـ ١١٣)

تنويه ٤٧
السلام المتكرّر في زيارة عاشوراء ٤٨
التحيّة ٤٨
معنى السلام ٤٩
معنى السلام على الإمام الحسين عليه السلام ٥١
الرتبة المعنوية تحدّد معنى السلام ٥٢
السلام استئذان بدخول رياض الزيارة ٥٢
النقطة الأولى: أدب المثول ٥٣
النقطة الثانية: تطابق القول والفعل ٥٨
أساس العبودية ٥٩
ابن الرسول ٦١
ابن سيّد الأوصياء ٦٢
ابن سيّدة نساء العالمين ٦٣
ثاراللّه ٦٣
شهيد ليس كسائر الشهداء ٦٦
الباحة الحسينية فِناء الأرواح الطاهرة ٦٨

سلام أبديّ ٦٩
إمام المنتقمين ٧١
الثأر لدم الحسين عليه السلام مع المهديّ «عجّل الله تعالى فرجه الشريف» ٧٤
إمام الهداية ٧٧
شمس وراء السحاب ٧٨
تجسيد ظلامة البشرية ٨١
ميثاق للإعلان عن الغضب ٨٢
اللعن رمز الاستياء ٨٢
الحرمان من الحسين عليه السلام مصيبة عظمى ٨٦
عدوّ النفس ٨٧
المستضعَفون فكريّاً ٩١
مراتب اللعن ٩٢
الولاية الباطنية والولاية الظاهرية ٩٥
مأساة البشرية العظمى ٩٦
تصوّرات واهية أم عقائد متجذّرة؟ ٩٩
اللعن عن بصيرة ١٠٢
نبذ الطاغوت وتمسّك بالحسين ١٠٢
اللعن والبعد التربويّ الفرديّ والاجتماعيّ ١٠٥
الخزي والعار ١٠٦
عذاب فوق العذاب ١١٢
زيارة عاشوراء ١١٤
أقرب من حبل الوريد ١١٧